سراب دجلة

سراب دجلة

رواية

خالد عبد الجابر

دار العين للنشر

أسستها د . فاطمة البودي عام 2000

المدير العام

4 ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة

تليفون: 23962475 20+ ، فاكس: 23962476 20+

E-mail: elainpublishing@gmail . com

الطبعة الأولى: 2023 م

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠٢٣/١٣٠٨٦

I . S . B . N 978 – 977 – 490 – 696 – 1

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لدار العين

تعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف

وليس بالضرورة أن تعبّر عن آراء الدار

سراب دجلة

روايـة

خالد عبد الجابر

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

عبد الجابر، خالد

سراب دجلة: رواية/ خالد عبد الجابر.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٣

ص؛ سم.

تدمك: ١ ٦٩٦ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع/ ١٣٠٨٦ /٢٠٢٣

إهداء

إلى أمي..

أول مَنْ أمسكت بيدي لتُعلِّمني كتابة الأحرُف والكلمات

إلى إيهاب..

نصف الدنيا، ونصف كل ما عرفتُه أو تعلَّمتُه

وإلى يوسف..

مَنْ علَّمني البراءة، ثم رحل في سلام

إلى الخال:

عبد الرحمن الأبنودي

وصديقه الغالي:

الأسطى حَرَاجِي – العامل في السدِّ العالي

إلى مَنْ تركوا أرضهم..

إلى مَنْ وجدوا الغربة في أوطانهم..

فقرروا أن يبحثوا عن الوطن في مكانٍ آخر

إلى الهاربين من غربتهم باغترابهم..

إلى مَنْ عاشوا عمرهم ضيوفًا يراودهم حُلْم العودة...

فتاهـــوا!

"أَهِي هي هي الحدوتة
مش كنت بتزرع هنا في أراضي الغير
وآخر الحُول تكون اتهدِّيت والغير ياخد الخير
عندك نفس القصة يا حراجي
صدَّق وتعالَ
لو كان راح يدُّوك كانوا ادُّوك
همَّا ما عاوزين منَّك يا حراجي غير حيلك
لِيتَى ها نقعد عُبَطه كده.. يلعب بدماغنا ديكي وده
هاودني وعَاوِد يا رويجي
عاود وتعالَ
ادي عندك قراطين ازرعهم
وحدَاك عيال.. تنهب جهدك على مين؟!!
دي عباد شرسة..
بكفاية ست أحوال"

عبد الرحمن الأبنودي

الفصل الأول

الغريب

بغداد – 1984

أحلام اليقظة أشد رُعبًا من تلك التي نراها في نومنا. يخشى إغلاق عينيه هربًا من ذاك الحُلْم الذي ظل يراوده طوال شهر كامل، ويتعجب، كيف لحلم أن يتكرر بتلك الصورة ولا يأتيه إلا متيقظًا بعقلٍ يعي كل ما حوله ويتركه فقط إذا خَلَد للنوم؟

يفرك عينيه طوال يومه براحتَيْ كفيه آملًا في التغلب على صراع الأثقال المحمولة على جفونه لتهزمه مرات كثيرة، فيستسلم علَّه يستطيع تجاوزها نحو النوم فيهدأ عقله المسكين ويختفي كابوسه بنومه، يعلم أنه لا سبيل للوصول إلى ما يريد غير الطريق المؤلم ذاته كل يوم.

إلى طبليَّة غيَّر الزمن لونها الخشبي الفاتح إلى لون بُني أدْكَن يحمل ملمسًا دُهنيًّا وآثارًا لمئات الأطباق تبادلت مواقعها على سطحها مع الأيام، كانت تجلس أسرته الصغيرة، أبٌ وأمٌّ وأختٌ يلتفون حولها لتناول طعامهم. بينما يرى نفسه من الخارج واقفًا منزويًا بركن بعيد، يخفيه عنهم ساتر من الضباب

فلا يستطيع تحذيرهم من تناول وجبتهم المسمومة. صوته لا يصل، ويمنعه قيدٌ لا يعلم كيف يربطه في لا شيء فيتألم، بينما يراهم يموتون أمامه ببطءٍ بلا حيلةٍ بعد أن باءت كل محاولاته بالفشل، فلا استطاع أن ينضمَّ إليهم ليلقَى نفس المصير، ولا التدخل لمنع آلامهم.

أيقظه من غفوته صوت مرؤوسه ينبهه لانتهاء موعد العمل، فوقف بيأسٍ للعودة إلى غرفته القريبة من موقع عمله مارًّا بشوارع اعتاد عليها ولم يألفها.

بأقدام أنهكها طول المشوار صعد درجات السُّلَّم المعتم نحو آخر طوابق البناية، يتألم مع كل درجة سُلَّم يشعر بصلابتها تحت قدميه، اعتادت قدماه الأرض الطينية فأرهقته قسوة الدرجات الصلبة.

دخل غرفته ولم يبالِ للعيون التي تتطلع إليه، وضع ما يحمل على سريره، المكان الذي يمثل العالم الخاص به داخل تلك الغرفة المزدحمة بالأسِرَّة المشابهة.

أراد أن يخلع البنطلون والقميص، أزرار القميص تضايقه وتسخر من أصابعه التي لم تعتَدْ عليها، ما زال يخطئ عند ارتدائه ولا يكتشف الخطأ إلا عندما يصل إلى آخر زِرّ فيظهر الفرق بين النصفين، يتلفَّت بخجل ليرى هل لاحظه أحد الموجودين حوله، ولكنه الآن يمارس الفعلَ الأحَبَّ لقلبه ويخلعه.

خلع القميص والبنطلون واحتفظ بالصديري الصوف، ثم تناول بحرص جلبابًا يحرص على تعليقه مفرودًا على الحائط فلا يعيب لوحته

سوى جلباب غريب عن كل ما يحيط به، لا ينتمي إلى المدينة التي يسكنها، تناوله وارتداه سريعًا.

أخرج أوراقًا وقلمًا ودواية حبر، يصر على الكتابة بهما ويفضلهما على الأقلام ذات الحبر الجاف، رفض استبدال قلم جدِّه ذي الرأس النُّحاسيّ والمقبض الخشبيّ المحفور عليه بماء الذهب "محفوظ المصري".

اختلى بنفسه تحت أضواء القمر على سطح تلك البناية مُتخذًا من سورها مسندًا... ثم خَطَّ رسالته الأولى.

(أول رسائل الغُرْبة)

أكتوبر – 1984
بغداد – العراق
مُرسَل إلى: قرية (ونس النيل/ دقهلية)
يُسلم ليد/ محمد محفوظ المصري
بمنزله الكائن بنواحي البحر – شارع القصر

والدي العزيز الغالي/

أهديك أطيب التحيات والسلام، فالسلام على مَنْ علمني السلام.

أما بعد،

هذه رسالتي الأولى إليك، أرسلها بعد أول شهر قضيته في تلك البلاد الغريبة، واعذرني للتأخير فلم أجد مُسْتَقَرًّا يؤهلني للإمساك بالورق والقلم إلَّا الآن. أخذوني يا والدي العزيز من الدار للنار كما يقولون، ما إن وطئت قدماي أرضهم حتى وجدت العمل في انتظاري.

رحلة الطائرة كانت قاسية، خطواتي على سُلَّمها مرَّت كأعوام. كنت أخشى أن يلومني الصاعدون خلفي على التأخير، ولكن يبدو أن جميع المغادرين كانوا مثلي يقدمون قدمًا ويسحبون الأخرى. ولا أدري يا أبي ما الذي أتى بعيون أمي لتظهر لامعةً في تلك الفتحة المعتمة بنهاية هذا السلم الطويل، لم أَرَ شفتيها، فلم أدرك في حينها هل تبكي أم تبتسم، ولكني أحسست بنبضها وأنا أجتاز الباب إلى الداخل.

عندما تَرَكت الطائرة الأرض وارتفعنا إلى السماء، انتظرتُ حتى استقرَّت لأقرب نقطة إلى اللَّـه، فنظرت إلى الأعلى لأسأله لماذا دفعني إلى ترك أرضي والذهاب بعيدًا؟ كنت أسأله دومًا في صلواتي منذ أخذنا قرار السفر، ولكني أحسست أنه ربما اقترابي منه يساعدني في تلقِّي الإجابة، ولكن حكمته كانت بلا إجابة، ربما ستكشفها الأيام.

كان في انتظاري في المطار حين وصلت إلى هناك منصور ابن الحاج سليم كما وعدني، تأخر قليلًا حتى انتابني الرعب، ولكنه ظهر في النهاية. أخذني إلى غرفتي الجديدة، هي أصغر من غرف دارنا يا أبي، ولكنها في بيت كبير مَبنيّ بالخرسانة ويسكنها أربعة أشخاص غيري لم يهتموا لحضوري ولم يُعِرْني أحد اهتمامًا. جلست قليلًا مع منصور وأعطيته ما أرسلَتْه له أُمُّه وخطاب أبيه وشريط التسجيل، جلس قليلًا وأكلنا معًا من فطير أمه الذي جعل أولئك غير المهتمين يلتفون معنا حول تلك الوليمة.

في الصباح، قال لي أحدُهم قبل أن يغادر لعمله:

– ستجد في الثلاجة خبزًا وجبنًا لتتناول فطورك، واجب ضيافتك ثلاثة أيام ثم ستدفع ثمن ما تأكل، وسيخبرك منصور عن إيجار سريرك.

قالها ثم غادر ولم ينتظر رد فعلي، كرسالة مسجلة يحفظها المغتربون القدامى ليخبروا بها المستجدِّين أمثالي. ولكني لم أنتظر اليوم الثالث، في اليوم الثاني مباشرة حضر منصور وأخبرني كل شيء وكأنه يُمِلي عَلَيَّ دليل المغتربين الجُدُد. حفظت تعليماته عن ظهر قلب، شروط استخدام المرحاض في الصباح، مواعيد الطعام، مواعيد النوم، أين نضع أحذيتنا، وتقسيم المهام داخل تلك الغرفة الصغيرة، شاركتهم حياتهم الغريبة.

تسلَّمتُ عملي بذات اليوم، لم يكن العمل شاقًّا يا أبي فأنت وجدِّي علمتماني منذ نعومة أظفاري كيف أعمل وكيف أعتمد على نفسي.

توالت الأيام يا والدي العزيز، قضيتُها ما بين الذَّهَاب للعمل والنوم على سريري الصغير، لا أعرف ما الذي يحدث في الشوارع التي تحيطني سوى الشارع الذي يقع به الدكان الذي أعمل به والطرق المؤدية إليه. تشبه شوارع القاهرة بزحامها ومحالِّها وعجلة الناس المارِّين بها، والناس التي لا تنام والأضواء الباهرة في كل مكان. أتذكَّرها منذ ذلك اليوم الذي جعلتنا ننهي العمل في الحقل مبكرًا وطلبت مني الاستحمام وارتداء أجمل ما لديَّ من ملابس، لتأخذني معك بالقطار لنشتري ماكينة الري بعد أن كلفك بعض أهالي القرية بالمهمة لأمانتك وصدقك. يومها جعلتني أسير في شوارع وسط البلد والعتبة فاغرًا فاهي وسط المباني الحجرية الشاهقة.

رائحة التاريخ التي غمرت دكاكين القاهرة امتدت أيضًا إلى بغداد يا أبي وكأن هناك رابطًا خفيًّا يربط المدينتين، فقط لم أجد يدك لأمسك بها خوفًا من الضياع وسط زحام المارَّة بين حواريها، أتذكَّر كل لحظاتنا معًا. وعدني منصور أنه سيأخذني في العطلة الأسبوعية لزيارة المدينة وتفقُّدها ولكنه لم يفعل حتى الآن وأنا غير متعجل، فالأيام القادمة ستكون كثيرة وسأحتاج بها ما يكسر ذلك الملل.

في النهاية يا والدي أطمئنك على أحوالي، وأعتذر لعدم إرسال الحوالة هذا الشهر فأنت تعلم أن الشهر الأول بالغربة احتاج مني إلى مصاريف لتجهيز سريري وشراء بعض المستلزمات الضرورية، وسأقوم من الشهر القادم بإرسالها كما اتفقنا قبل رحيلي.

أرسِل سلامي وقبلاتي إلى أمي الغالية، وإلى أختي عزيزة، وأخبرهما أني اشتقتُ إليهما وأن الحياة بدونهما غريبة، ولكنه نداء الواجب والظروف التي أبعدتني عنهما ومن أجل عيونهما سيهون كل شيء.

ستجد عنوان المراسلات على الظرف المُرسَل إليك، سأنتظر خطابك يا أبي، والسلام ختام

ولدك المخلص/ صادق المصري

***

نوفمبر – 1984
قرية (ونس النيل/ دقهلية)
يُسلم ليد/ صادق محمد المصري
بمقر عمله – العراق – بغداد – شارع الرشيد – مقهى البلدية

ولدي العزيز الغائب/ صادق

أشكر اللّـه أنك بخير، وصلَنَا خطابك ونزل على قلوبنا كالبرد سلامًا، ولكنه لم يطفئ نيران الشوق إليك.

عندما ودعتك على مدخل قريتنا وأثناء عودتي كنت أتساءل عن صحة قرارنا لغيابك. للمرة الأولى منذ رؤيتي لعيونك الصغيرة عند ولادتك وأنا أتلقَّفك من يدَي الداية أشعر أن ظهري أصبح عاريًا، ربما تكون تلك المرة الأولى التي أخبرك فيها بتلك الكلمات، ولكنك دومًا كنت بعيوني أمان المستقبل الذي راقبته مع تطوُّر حركتك ونُموِّك أمامي، ولا تجعل كلامي هذا يُحزنك فغربتك كانت قاسية علينا جميعًا. فنحن لم نتركك ترحل إلا أملًا في الحصول على المستقبل الآمِن الذي طالما روادنا في الأحلام ولكن بيديك.

للغربة ضريبة يا ولدي، ولكنك لن تدفعها وحدك فكلنا سنتحملها معك، اجمع المال وعُدْ سريعًا، فنحن في انتظارك، واجعل لأيام غربتك ثمنًا، حتى لا تضيع السنوات هباء. وتذكَّر أنك ذاهب إلى العمل فحافظ عليه، واعمل واجتهد وسيرى اللَّه عملك ورسوله والمؤمنون. حافظ على صلواتك، واجعل مَن يراك يدعو لمن رباك، وتعلَّم في كل يوم شيئًا جديدًا، حتى تعود قويًّا.

بخصوص الحوالة، فأنت تعلم جيدًا كَمَّ الديون التي تركتها خلفك، وخططنا معًا لما هو قادم، فجاهد حتى نلتزم بما أردنا. تحدثت مع الحاج صابر الويشي ليصبر قليلًا على أقساط الأرض، ولكنه لن يمنحنا الكثير من الوقت، وأنت تعلم أن القيراطين مطمع للكثير بسبب قربهما من مجرى النيل، ولولا التزام الرجل بكلمته لنا لباعهما لغيرنا بمبلغ أكبر فلا تُعطِه فرصة للعدول عن وعده بعدم التزامنا.

أمك بخير تدعو لك ليلًا ونهارًا، لا تنطق سوى باسمك. بالأمس وجدتُها تتشاجر مع بائعة اللبن عندما نادتها يا أُمّ عزيزة، أخبرتها أنها أم صادق، وتجادلتا معًا لأن أُمّ حسن الداية أكَّدت للبلد أن عزيزة هي الأخت الكبرى، ولكن أمك تصرُّ على أن تُلقَّب بأُمّ صادق.

وعزيزة بخير ولكنها انطفأت فجأة، رفضت أن تستمع إلى خطابك السابق، أخبرتني أن الكلام المكتوب لن يستطيع أن يعوض لمستك الحانية لها ولن يكسر مسافات بُعدك عنها عندما تجبرها الأيام للاحتياج إليك، وأنا لا أعلم عن أي لمسة حانية تتحدث؟ كنتما دومًا مثل القط والفأر،

لم تهدأ أبدًا نقاشاتكما الجدلية ولم تستسلم قَطُّ لتحكُّمك بها وسيطرتك عليها، كانت تدعو اللَّه أن تتخلص من ولايتك عليها، والآن حزنت لبعدك وأصبحت تتمنى عودتك حتى ولو أغلقت شباك غرفتها بالخشب والمسامير، حتى لا يغازلها خضر ابن عمها إبراهيم ويقف تحت الدار يغني لها أو يقول فيها الشعر.

وأخيرًا، لم تعجبني كلماتك عن زملائك في الغرفة، الصديق للصديق والناس للناس يا ولدي، اقترِبْ منهم وتعايش معهم اكسب صديقًا كل يوم، ولكن اجعل حولك دائرة حمراء لا يدخلها إلا من يستحق.

والسلام ختام.

والدك/ محمد محفوظ المصري

***

ديسمبر – 1984
بغداد – العراق
مرسل إلى: قرية (ونس النيل/ دقهلية)
يُسلم ليد/ محمد محفوظ المصري
بمنزله الكائن بنواحي البحر – شارع القصر

والدي العزيز الغالي/

أهديك أطيب التحيات والسلام.

أما بعد،

الأيام لا تمرُّ يا والدي العزيز، ترددتُ كثيرًا قبل أن أكتب عبارتي الأخيرة تلك إليك، فأنا أعلم أن بُعدي عنك يؤلمك مثلما يؤلمني، ولكن ترددي كان نابعًا من خشيتي أن أهزَّ ثقتك فيما زرعته بي منذ نعومة أظفاري من معاني الرجولة والقوة، وانهيار المشاعر لم يكُن بيدي قط.

اشتقتُ إليك يا أبي؟ فهل اشتقت إليَّ؟

اشتقت إلى الاستيقاظ مبكرًا على صوت خطواتك بدارنا بينما تتوضأ للفجر، همهماتك بآيات القرآن والأدعية أثناء مرورك بباب غرفتي قبل

صدوح صوت المؤذن، صياح الدِّيكة في حظيرتهم وقُبلتي لجبين أمي بينما أعترض طريقها أثناء ذهابها لجمع البيض ووضع الطعام لهم.

خروجنا معًا بالمواشي في طريقنا إلى الحقل، مساعدتك في الزراعة والإفطار على ضفاف النيل بما تُحضره أختي عزيزة على الصينية المحمولة على رأسها.

عندما أغفو في المساء ينتابني حُلْمٌ يوميّ، أرانا يا أبي جالسين إلى طبلية الطعام نضحك ونتسامر، فأنتشي بحالة من السعادة، أستيقظ منها على سؤال لماذا لستُ معكم؟! أقف أمام مرآتي لأتساءل ما الصعب في اجتماعنا لأُفيق على حقيقة آلاف الأميال التي تفصلنا.

هنا أيضًا أتناول إفطاري على ضفاف دجلة في طريقي إلى عملي بشارع الرشيد، ولكني أفتقد شجرة الجميز العجوز، أهرب دائمًا من صخب الشارع الكبير بالمرور من الحارات والأزقَّة التي تُذكِّرني بقريتنا، ولكني لم أعُدْ أشم رائحة الطين ونسيم البرسيم الذي يدفعه هواء البحر.

أقضي يومي في العمل، أعمل في مقهى يشبه كثيرًا تلك المقاهي الشعبية الموجودة في المدن في مصر، يجلس فيه الكثير من المثقفين ربما بسبب قربه من سوق الكتب، يتحدثون عن السياسة وعن الحرب يُطلقون عليها قادسية صدام بينما يعتبرها عدوُّهم الدفاع المقدس. كنت قد قرأت كثيرًا من قبل عن العراق وكُتُبها وثقافتها، ولكني لم أجد هنا مَن يتحدث عن العلم، الحرب والخوف من المستقبل والحديث في السياسة استطاعت وبجدارة دفن الأحاديث الفكرية والتنويريَّة.

عملي بالمقهى لم يُعجبني وحاولتُ البحث عن عمل غيره، حتى وجدت عملًا جديدًا في مكتبة لبيع الكتب ستجد عنوانها على ظهر الظَّرْف حتى تراسلني عليه، وساعدَني في الحصول على هذا العمل الجديد ما تعلمته في كُتَّاب جدي الشيخ محفوظ وما جعلني أقرأ من كتب ورسائل. إصرارك على تعليمي كان دومًا ما يؤرقني، ولم أكُن أعلم له سببًا، ماذا سيفيدني العلم في حمل الفأس، مهنتي التي وجدت عليها أبي وجدودي، كنت أعتقد أنه يكفيني ما تعلمته في الكُتاب وما حفظت من آيات اللَّـه البيِّنات. اليوم أنا نادم على هروبي المتكرر من المدرسة، وشاكرٌ لك كل ما صنعت من أجل أن تمنحني ذلك القدر من الثقافة، الذي انتشلني من تقديم الشاي إلى تقديم العلم.

لا أعلم هل ستقبل عزيزة سماع تلك الكلمات أم أنها سترفض مثل المرة السابقة، ولكني أريدها أن تعلم كَمْ اشتقتُ إليها وإلى ضحكاتها. أخبِرها يا أبي بأني سأظلُّ دومًا جوارها، وليس البعيد عن العين بعيدًا عن القلب كما يقولون، أخبرها أني سافرت حتى لا تُجبرها الأيام أن تحتاج لأحد.

وتحدَّث دومًا عني أمامها وأمام أمي حتى تظلَّ سيرتي عالقة في قلوبهم.

ملحوظة:

أرجو أن تكون الحوالة قد وصلت في موعدها، وسأعمل جاهدًا على زيادة مبلغها في المرة القادمة، فمعاشي زاد مع تغير العمل الحمد للَّـه.

وأرجو أن تكون قد أتممتَ الاتفاق على الأرض.

مع الدفعة الثانية يجب أن تكتب العقد الابتدائي، واجعل على العقد شاهدَيْن يا والدي، حتى تُحفظ الحقوق وتُصان،

والسلام ختام.

ولدك المخلص/ صادق المصري

***

يناير – 1985
قرية (ونس النيل/ دقهلية)
يُسلم ليد/ صادق محمد المصري
بمقر عمله – العراق – بغداد – شارع المتنبي – مكتبة الفرات

ولدي العزيز الغائب/ صادق

أشكر اللَّـه أنك بخير.

في البداية أريدك أن تطمئنَّ بخصوص الحوالة فقد وصلت في موعدها، وتسلَّمتُها، ولم أعُد إلى الدار إلا بعد أن مررت بالحاج صابر الويشي وأنهينا الاتفاق ودفعت العربون. على الرغم من محاولاته المستميتة للتنصُّل من عهده السابق معنا، طمعًا في الحصول على المبلغ كاملًا وليس تقسيطًا، بعد عدة مناوشات أصررتُ على موقفي وتوعَّدته هو أو أي فرد من طرفه يحاول النزول إلى الأرض، فهي تحت حوزتنا وما زال عقد إيجارها ساريًا وهددته بتبويرها حتى لا تصلح للزراعة لموسمين أو ثلاثة، فرضخ في النهاية. وكتبنا ورقة صُورِيَّة لتأكيد الاتفاق، أعلم أن الرجل له أفضال كثيرة علينا، ولكنه مجرد تهديد أجوف هو أيضًا يعلم أني لن أؤذيه ولكنه

في النهاية وافق وليسامحني اللّـه، غيَّرته الأيام ومُغرياتها يا ولدي وبدَّلت موقفه وحاله من حال إلى حال.

ما أحزنني يا ولدي هو معرفتي بأن أحد أكبر الطامعين في الأرض هو عمك إبراهيم، هو من أغرى الحاج صابر بزيادة سعرها والدفع فورًا، ألا يكفيه ما فعله بعد وفاة جدِّك من الاستيلاء على حقوقنا أنا وعماتك؟ ولكنها الدنيا يا ولدي وتلك أطماعها، لذا فاحذرها أشد الحذر.

تسألني هل اشتقت إليك؟ ولن أجيبك يا صادق.

ينادونك صادق، وأنا كلما غدوتُ في طريقي بالقرية يحيونني أبا صادق، يرتبط اسمي باسمك وليس العكس، فأتذكَّرك مع كل نداء، وكل كلمة موجهة إليَّ من قريب أو غريب.

هل اشتقتُ إليك؟ أحقًّا تسألني يا صادق؟!

كنت أتعمد يوميًّا أن أُقلق نومك بهمهماتي ودعواتي على باب غرفتك لتستيقظ وتقوم لصلاة الفجر فأراك أول ما أرى في كل يوم جديد، أسير جوارك إلى الغيط متباهيًا بقوتك وشموخك، أسترقُ النظر إلى المارِّين بنا بينما يقولون لأنفسهم "اللي خلِّف ما مات".

أنظر إلى مكانك الخالي على طبليَّة الطعام وأسأل نفسي السؤال ذاته لماذا لست هنا؟

أهرب من أسئلة أمك التي لا تنطقها، وفي مراتٍ أخرى أقف أمامها متعمدًا علَّها تتكلم وتسألني فأبرر لها ما يرفضه قلبي فربما أرتاح من نظراتها اللائمة.

وعزيزة يا ولدي تحبك، قرأتُ لها ما أرسلتَ وطلبَتْ مني أن أخبرك ألَّا تقلق بشأنها، تقول لك لقد تركت رجلًا آخر لأبيك، فلا تخشَ عليها من الدنيا ولا من خضر ابن عمها.

ليتك رأيتها بينما تركب الحمار في طريقنا إلى الأرض تمد قدميها الاثنتين في ناحيةٍ واحدة وكأن أباها صاحب عزبة، بينما ترتدي جلبابك وتربط رأسها بمنديلك، مَن يقف على جسر البحر أمامنا يظنك عُدتَ من غربتك ونزلت لتساعدني كما كنت دومًا تفعل.

في النهاية، أفزعني كلامك عن الحرب يا ولدي، فذهبت إلى الأستاذ سعيد مدرس التاريخ الذي يسكن في أول البلد وجلست لأفهم منه ما يحدث عندك، تحدث كثيرًا، ولكني لم أفهم ما يقول، لم يَقُلْ أخبارًا وكانت أحاديثه كلها اجتهادات وفلسفة عن صَدَّام والخميني والسُّنَّة والشِّيعَة. لم أفهم لماذا يتقاتل المسلمون! أسأله عن بغداد وعن شارع الرشيد حيث تقيم وتعمل هل ستصل الحرب إليها، فيخبرني أن الحرب إذا استمرت قد تصل إلى القاهرة وشارع التحرير،

استمعتُ إلى نشرة أخبار التاسعة فكان الخبر عابرًا، ولم يدلَّني على شيء، طَمئِنِّي يا ولدي باللَّه عليك، هل أنت قريب منها أم بعيد؟

أنا أعرف الحرب وأعرف مأساتها، حتى المنتصر يخسر، رفعتُ رأسي بالنصر منذ سنوات، ثم نكَّستها حتى لا يرى دموعي أحد على فراق أخي وأعز أصدقائي، ذهبنا معًا وعدت وحيدًا منتصرًا أمام الجميع، وخاسرًا أمام قلبي، ما خسرتُه في الحرب يا ولدي وما خسرتُه بسببها وبعد نهايتها لم يستطع النصر أن يعوضني عنه.

إذا كانت الحرب فلتَعُدْ يا صادق، حتى لو وصلت الحرب إلى القاهرة كما يقول الأستاذ سعيد، فلتحارب إلى جواري دفاعًا عن أرضنا، فما فائدة الأموال إن فقدتُك في حربٍ لا أعرف عقيدتها.

حفظك الرحمن، وأعادك لنا سالمًا غانمًا.

والدك المخلص/ محمد محفوظ المصري

***

البـدايـة

يونيه – 1967
قرية (ونس النيل/ دقهلية)

دوَّت أصوات الطائرات الحربية كالرعد يشقُّ سكون ليلة مظلمة، مقترنةً بصَفَّارات الإنذار وصوت الفتية وهم يهرولون في الشوارع والأزِقَّة، محذرين لمن يشعل الأنوار كي يُغلقها لتعيش القرية ظلامًا دامسًا حتى انتهاء الغارة. بينما يتسلل شاب يافع ملتصقًا بجدران البيوت الطينية، وفي يده طفلٌ لم يتجاوز الرابعة بعد ويجرُّ حمارًا يحمل امرأة وطفلتها ذات الأعوام الستة بين يديها، في طريقهم إلى دارٍ أخرى سيترك ثلاثتهم بها، كي يبدؤوا حياة مؤقتة في انتظار عودته من جبهة القتال. قرر العودة إلى هناك بإرادته لاستعادة ما سُلب، وهل يوجد ما هو أقسى على الفلاح من سرقة أرضه؟ كان قد أنهى تجنيده منذ فترة لكنه أراد أن يسبق قرار إعادة استدعائه لوجوده على قوة الاحتياط، وحتى لو لم يتم الاستدعاء لن يعطي قادته فرصة رفضه أو عدم قبوله حتى لو تطلَّب الأمر المبيت أمام أبواب المعسكر أو الذهاب

إلى الجبهة وحيدًا حاملًا فأسًا وهِرَّاوة، سيشارك في الحرب، هذا هو قراره. يَسترِقُ النظر إلى السماء ليرى أسرابًا من طائرات العدُوِّ فيُخفض عينيه منكسرًا وبداخله عار يشعر به وكأنهم يستبيحون خصوصية أهل بيته، وكأنهم يمرُّون من داخل فسحات داره وغُرَفه يتطلعون إلى نسائه وعِرْضه، فينتهكون شرفه لا سماء بلاده. ستة أيام مرت منذ أفزعته وأهل قريته أصوات الطائرات الحربية المعادية. كانت الأصوات غريبة وغير معتادة، وأشكال الطائرات بينما تجتاح السماء تؤكد له أن حدثًا جللًا قد حدث. ولكن الراديو لم يبلغهم بشيء والجرائد كانت تزفُّ لهم أنباء الانتصار على العدوِّ وإسقاط طائراته، يُحصي مع الجرائد وبيانات القوات المسلحة الأعداد كل ساعة من ثلاثٍ وأربعين، حتى تجاوز العدد الست والثمانين طائرة للعدو وازدادت أعداد الأسرَى. كان يستيقظ مبكرًا ويخرج إلى سنترال القرية منتظرًا وصول سيارة الجرائد للكُشْك الوحيد الملاصق للمبنى، لينتشي بأخبار توغل الجيش العربي إلى قلب تل أبيب، بعد أن أكدت وسائل الإعلام منذ أيام أننا ننتظر المعركة على أحَرِّ من الجمر، ليعرف العالم أن الجندي العربي هو المقاتل الشجاع الباسل، وأن الجبهات في سوريا والأردن تحقق التقدم بعد أن انضمت إليهم العراق، وستتصدى الأمة العربية كلها لأي عدوان. تتعالى الصيحات مُكبِّرةً بينما يمسك بالجريدة ليقرأ بصوت مسموع لمن يحيطون به من الفلاحين "القوات السعودية تدخل المعركة – الجزائر والكويت والسودان تعلن الحرب على إسرائيل، قوات الأردن تضرب خمس مستعمرات والطيران العراقي يقصف العدوَّ في عقر داره، وقاذفات القنابل السورية تضرب معامل التكرير في حيفا".

تزداد الفرحة ويعلو التكبير فيزهو بثقة المنتصرين مع كلمات عبد الناصر بأن تلك الخطوة ستملأ الأمة العربية كلها بالثقة، ثم فجأةً تبدَّل كل شيء بعد قرار وقف إطلاق النار، فأصبح الجميع يتحدث عن خيوط المؤامرة الثلاثية التي تتكشَّف في صورتها النهائية، ثم خرج جمال عبد الناصر بصوته المليء بالشجن ليتحدث عن الهزيمة، مُعلنًا تحمُّله كامل المسئولية. وعلى صوت جمال المنبعث من الراديو كانت أمَّةٌ بأكملها تبكي مستغيثةً "لا يا جمال"، نزل عليهم حديثه كالصاعقة بينما يقول: "ولقد اتخذت قرارًا أريدكم جميعًا أن تساعدوني عليه: لقد قررت أن أتنحَّى تمامًا ونهائيًّا عن أي منصب رسمي وأي دور سياسي، وأن أعود إلى صفوف الجماهير، أؤدي واجبي معها كأي مواطن آخر"، جدران بلد بأكملها اهتزت رافضةً ومذهولةً من هول الخبر، حمل أبوه الكفيف صورة الرئيس وجاب شوارع القرية مستندًا على عصاه التي تتحمله بالكاد مناديًا: "يا جمال لا تتنحَّى". توالت صور القوات المنسحبة وبدأت صرخات الفَقْد تعلو جنبات الأزِقَّة والحارات والقرى والنجوع على الشهداء والمفقودين، تركت الحرب في كل بيت شهيدًا ونكَّست الهزيمة الرؤوس، فأخذ قراره بينما كان رافعًا رأسه ليراقب أسراب العدو بالسماء. توقف قليلًا، ثم انهارت عيناه باكية، وتمتم بقسَمٍ إلى اللَّـه بأنه لن يعود حتى يأخذ حقَّه ويستعيد كرامته.

سمعته زوجته على حمارها فخطفها القَسَم حتى إنها صاحت به مستنكرة:

– لن تعود؟ ولمن ستتركنا يا أبو صادق؟

لم يُجِبْها، مضى في طريقه إلى دار أبيه، ثم تركها على بابه بطفليها ورحل.

***

زينب، صَبيَّة صغيرة في بدايات عِقْدها الثالث، وجدت نفسها أُمًّا لطفلين، تحمل على عاتقها رعايتهما مع جدِّهما الكفيف.

تستيقظ عند الفجر، لتصبَّ الماء للشيخ العجوز ليتوضأ ويذهب للصلاة، ثم تدخل إلى الجرن لتشعل بعض الحطب في فرن الطين لعمل ما لذَّ وطاب من العيش الفلاحي المخبوز بالذُّرة مع الدقيق، تأخذه بعدها وتذهب إلى أول القرية تجلس على قارعة الطريق ليتوقف أصحاب السيارات المتنقلون بين المدن المجاورة فيشترون منها، لتعود إلى دارها بما يكفي من النقود لإطعامهم.

عند المساء تحمل ذلك الطست الكبير وبداخله الأواني المتسخة من أثر الطعام وعجين الصباح، ثم تذهب إلى إحدى البقاع على ضِفَّة النيل بصحبة جاراتها من الصبايا لغسيل الصحون وملء جرَّة الماء واللَّـهو في البحر، كما يُطلقن عليه. مختبئاتٍ خلف جذوع الأشجار لا يراهن سوى المارِّين بقوارب الصيد الصغيرة، فيحتشمن كلما مَرَّ قارب من بعيد، على الرغم من محاولة الراكبين إلهاء أنفسهم في سَحْب الشَّبَك والتجديف ووجوههم مُصوَّبة نحو البر الثاني بينما يتحدثن ويتسامرن قليلًا قبل أن تلحق بهن باقي هموم اليوم من أعمال داخل المنزل.

سألتها إحداهن بخبث ذات مرة:

– هل ما زلت تبيعين الخبز؟ وأين عَمّ عيالك إبراهيم أبو خضر؟ لماذا لا يعطيكم من خير أرض أبيه؟

كانت ترى المكر في السؤال، ولكنها كانت بنت أصول، صانت سِرَّ

أسرتها كما صانت شرف زوجها الغائب.

– أبو خضر عَمّ ولادي الكبير، يرعانا ويرسل إلينا بالدار من خير الأرض وخير أبيه.

أجابت بينما عيناها المنكستان في الأرض ترفضان الكذب.

تصحبها ابنتها أينما ذهبت، تتعلَّم منها وتراقبها وتحاول دومًا تقليدها، أما صادق فقد صَحِب جده الشيخ محفوظ.

عجوز كفيف، ولكنه يحمل من العلم ما يُغنيه عن رؤية العالم، تفتَّحت عيناه ليجد نفسه مُزارعًا في أرض أحد باشوات مصر، نما وعيه مع سعد باشا زغلول وثورته، واختلس الوقت ليتعلم في كُتَّاب قريته. كان يريد ارتداء الجُبَّة والقفطان مثل شيخ القرية ولكن ضيق حال أسرته ترصَّد له ليقضي كل وقته في الأرض مُزارعًا أجيرًا، فلم يرث من أهله غير ذُلِّ انتظار اليوميَّة ليأكل بها وينتظر اليوم التالي ليجد ما يأكله، ما زاده إصرارًا على التعلُّم فلازم شيخ القرية وظل يترجاه حتى أرسله إلى الأزهر الشريف، فتعلم ثم عاد ليكمل العمل في أرض الباشا مع أبيه، وتزوج في الثلاثين بعد أن لامه الجميع لعدم اللحاق بقطار الزواج. ظل يحلم بالمستقبل المشرق ويرى النور قادمًا مع الضباط الأحرار. كان يسير بقريته ليبلغ الجميع أن الحرية قادمة وأن زمن الذل ولَّى، حتى استيقظ ذات يوم فوجد نفسه يمتلك أرضًا وأفدنةً كثيرة، ورحل الباشا وترك قصره فلم يتبقَّ من سيرته سوى اسم الشارع الذي اختاره ليبني به دارًا كبيرًا جمعه مع زوجته وأبنائه الأربعة خلف جسر البحر، خوفًا من الفيضانات التي كانت تدمر البيوت

الملاصقة للحقول أسفل الجسر. كان قد خرج كثيرًا إلى الشارع مع جموع المصريين، خرج صغيرًا مع سعد باشا وخرج كبيرًا ليكسر الزير الفَخَّار الموجود بدارهم أمام نقطة الشرطة ليودع الضابط الإنجليزي، وخرج يحتفل بقانون الإصلاح الزراعي الذي مَلَّك الفلاحين الأرض ورحمهم من ذل الأجر، ولكن خروجه تلك الليلة بعد أن سمع ما قاله عبد الناصر بعد كلمة "ديليسبس" كان مختلفًا، يتذكَّر جيدًا ذلك اليوم عندما مشى ما يقارب الكيلومترات العشرة حتى المركز، مُرددًا كلمات عبد الناصر كأغنية:

"نستقبل العام الخامس للثورة نستقبله أشد عزمًا، وأمضى قوة، وأشد إيمانًا"، تدمع عيناه فيكمل،"بسم الأمة... بسم الأمة".

يذرف الدموع بينما يضع طرف جلبابه في فمه ويهرول... "قرار من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقنال السويس البحرية شركة مساهمة مصرية".

لم يمنعه كِبَر عمره من قطع تلك المسافة حتى وصل إلى استديو التصوير الوحيد الموجود بالمركز التابعة له قريته يتصبَّب عرقًا، وأخرج من داخل صدريته كل ما يملك من مال، طالبًا منه أن يضع صورة لعبد الناصر في برواز ذهبي اللون ليعلقها على باب داره، فوق مصطبة عريضة كان يجلس إليها منتشيًا كل ليلة يشرب الشاي من ركية النار بعد العصر، محتميًا من آخر ضوء للشمس بتعريشة من أغصان العنب تظلل فَسَحَة محاطة بالرَّيْحان أمام مصطبته. لم يؤرقه سوى خبر العدوان الثلاثي وانهيار مدن القناة فأغلق عينيه باكيًا ولم يفتحهما بعد ذلك اليوم، يومها قرر أن يترك العمل

بالأرض التي زرعها أجيرًا بعد أن تملَّكها، واتخذ من مصطبته الملاذ. لم يكتفِ بما يلقيه من دروس على حصيرته المفروشة على رأس الترعة المارَّة بجوار المسجد بين صلاتَي المغرب والعشاء، ولم تَكفِه خُطبة الجمعة ليصبَّ على أهل قريته ما شربه من علم، لذا فقد استخدم مصطبة داره ليجمع كل من يريد أن ينهل من العلم والمعرفة شابًّا كان أو طفلًا، وكأنه كان يعلم مصيرها عندما أنشأها وظللَّها أثناء بناء بيته، فاشتهرت مصطبته بكُتَّاب الشيخ محفوظ.

صمد كثيرًا وحيدًا حتى تمثَّل له العِوَض في صادق فكان خير الرفيق، طفلًا صغيرًا ما زالت عيناه تتفتحان للدنيا، أهداه له اللَّه ليكون عونه وسنده في آخر أيامه، فصحبه أينما ذهب مستبدلًا به عصاه.

***

سنوات تمرُّ والغائب لم يعُد، وغيام النكسة ما زالت تلقي ظلالها السوداء على سماء مصر كلها، في كل ليلة كان صادق يسأل عن أبيه فيجيبه جدُّه أنه ذهب من أجل الواجب المقدس.

في الخامسة تعلَّم القراءة بتهجِّي الأحرف من نصوص القرآن بتوجيهات الكفيف، وفي السادسة من عمره ختم القرآن. وفي السابعة كان الشيخ قد روى له ما جاء به التاريخ في كتاب الكامل لابن الأثير ولقَّنه ما يفيده من سُنن ابن ماجه. عرف عمر بن الخطاب وسأل عن عمر بن عبد العزيز. قرأ عن الشام عن العراق وعن بلاد ما وراء النهر. خرج في الشوارع ليبكي مع الباكين على فراق جمال عبد الناصر، وعندما عاد إلى الدار وجده

يكتسي باللون الأسود وأمه تنتحب بين النساء النائحات يلطمن الخدود ويَشقُقْن الجيوب.

ذهب مهرولًا إلى غرفة العجوز ليسأله عما حدث، ليجد الرجال وقد التفوا حوله مُغسِّلين ومُكفِّنين، لم يتحمل الرجل فراق عبد الناصر، وكأن العهد بينهما كان ينص على الرحيل معًا. انتهت مراسم الدفن والعزاء، عاد الجميع إلى دُورهم، وجلس صادق وحيدًا أمام مقبرة جده. علق على جدارها صورة عبد الناصر، وأخذ يتحدث إليهما، كان يريد السلام، يريد عودة أبيه، يريد أن يرى قريته كما أرادها جدُّه.

غافله النوم، فجاءه الجدُّ مبتسمًا، كان يرى، استكان حتى اقترب الجد منه وتحسس ملامحه فشعر برقَّة تجاعيد يديه على وجهه الناعم، واحتضنه فشعر بدفء المشاعر في دقات قلب العجوز، فابتسم الشيخ وأخبره كَمْ هو جميل المُحيَّا.

أخبره أن النصر قادم، وأن أباه سيعود، ثم عبس وجهه بينما ينظر إلى نقطةٍ ما خلفه، فالتفت ليرى ما أزعج الشيخ.

كان عمُّه إبراهيم يقف بعيدًا يضحك بصوت مسموع، بينما يحمل بين يديه كُراتٍ من النار يأكلها دون صعوبة ويستمر في الضحك.

روى لأمه ما رأى فبكت، لم تكُن تحمل من العِلْم ما يجعلها تفهم ما حدث، ولكن كلمات عمه إبراهيم لها منذ قليل كانت خيرًا من مفسري الأحلام.

انتظر رحيل أهل القرية ثم دخل إليها قائلًا:

– الحَيّ أبقَى من الميت، في الصباح احملي ما لكِ من أغراض واذهبي إلى دارك، هناك مُشترٍ لهذه الدار، ولم يَعُد هناك حاجة لها بعد الآن.

تمالكت نفسها تلك المرة، السوق والشقاء علماها أن الدنيا لا يمكن مواجهتها سوى بالقوة، لذا فقد توقفت عن النحيب وإجابته:

– بخصوص الرحيل إلى داري، فسأرحل حتى يظل باب زوجي وأبو عيالي مفتوحًا، وبخصوص بيع دار أبي محفوظ رحمة اللّـه عليه، ففيها ميراث حق لزوجي وأولادي وعماتهم.

ضحك إبراهيم، وكأن المُتوفَّى لا يعنيه، وأكمل حديثه:

– أيُّ ميراث؟! الحاج محفوظ لا يملك شيئًا، فقد باع لي الدار والأرض قبل موته، والحجج موجودة ومختومة بختمه، وأنا بطيبة قلبي كنت أترككم بها، وبخصوص بيت زوجك، افتحيه، ربما فتحه يجعلك تعودين للواقع وتدركين أنه لن يعود، ثلاث سنوات في حرب ولا حِسّ ولا خبر.

لم يفهم صادق لماذا تجمع أمه أغراضهم، ولكنه ذهب واستأجر عربةً ليضع عليها ما جمعته، ركبوا جميعًا في صندوقها، وما إن تحرك حمارها خطواتٍ قليلةً حتى قفز صادق صائحًا بأنه نسي أشياء مهمة.

عاد إلى الدار وحمل كتب جده، وعكَّازه وعاد إلى العربة، ركبها بهدوء وتابع النظر بعيونٍ باكيةٍ إلى المصطبة الملاصقة للدار حتى اختفت تدريجيًّا بابتعاده.

***

في الناحية الأخرى من القرية استقلَّ إبراهيم المصري بحياته داخلَ دارٍ، شهد أهل القرية جميعهم بجمال تصميمها ومساحتها الأكبر من أيّ دارٍ رأوها.

عاش بها مع زوجته وولده الوحيد بعد أن خرج من بيت أبيه، يُضمر بداخله الكثير من الغيرة لمن منحهم اللَّـه البنين والبنات، فيتساءل في صلواته عن السر وراء منحه لطفل وحيد يثبت عدم وجود عِلَّة تمنعه من إنجاب المزيد. وكأن الأرض عطبت بعد أن جادت له بولده خضر، لتحمل له دائمًا ما يُشعره بنقصه وقلَّة حيلته. حتى بعد تجربة زيجته الثانية التي باءت بالفشل فأعاد عروسه بعد عامين إلى بيت أهلها، يدنس جسدَها المسكين آثارُ ما لقت من تعذيب وضرب، وسِكِّين الإهانات الذي غرزه بقلبها وتركها لتكمل ما تبقَّى من عمرها تعاني آلامَه.

يُعزِّي نفسه بما يمتلك من مال وأصول زادها بعد رحيل الشيخ العجوز، فتراوده دائمًا فكرة أن كل أهل القرية يعلمون سِرَّه ومن أين أتى بثروته ليقابل نظراتهم بنظراته المتحدية أينما قابلهم.

أخرجته من أفكاره طَرْقاتٌ متتاليةٌ على باب داره تصحبها صيحات متتالية من سيد الغريب وأخيه مصطفى زوجَيْ أختيه البنات، يُتبعانها بعبارات غير مرتبة واتهامات عديدة بسرقته لحَقِّ زوجتيهما ونصيبهما من الميراث.

فتح الباب بدمٍ باردٍ وابتسامةٍ مصطنعة وكلمات ترحاب لم يُخرجها من داخله، استطاع فقط نطقها بتحريك شفتيه بلا مشاعر تصحبها.

قاطعه سيد الغريب صائحًا:

– لا سلام ولا كلام، انتظرناك كثيرًا ولم تقدم أي سلام، وأتينا اليوم لنطلب حق أخواتك البنات في الميراث..

وبينما تراقبهم زوجته متخفية من داخل الدار، كان ولده ذو السنوات العشر يمسك بطرف جلبابه مردداً لأسئلة فضولية عن سبب غضب زوجَيْ عمَّتيْه، فسحب إبراهيم الجلباب بعد خبطة قوية ليد الولد ليتحرر من قيده، ثم أجابهما بنفس الهدوء المستفز:

– منذ متى ترث النساء الأرض يا ولاد الأصول؟! هل تطمعون يا أولاد الغريب في أرض الشيخ محفوظ المصري؟

كان قوي البنيان ضخم الجثة، منحه اللَّـه القوة فيخشاه من يراه دومًا وتجبرهم طلَّتُه على إخفاء غضبهم، فالنِّزال يعني خسارة أحد طرفيه ولم يكن إبراهيم طوال حياته هو الطرف الخاسر.

قاطعه مصطفى مستنكرًا:

– وشرع اللَّـه يا بْن شيخ الجامع؟ والأصول يا بْن الأصول؟

واصل حديثه إليهما قائلًا:

– الأرض أرضي، تعب وجهد سنوات وعرق وشقاء بينما صاحبها كفيف لا يرعاها ولا يعرف عنها شيئًا، والبنات في بيوتكم ومحمد شغلته حياته.

فشلت كل محاولاتهما للحديث حول شرع اللَّـه وحقوق الميراث، وحتى

استعطافه بصِلَة الرَّحِم ومركزه بعد أن أصبح كبير العائلة لم يكن كافيًا ولا شافعًا.

نحَّاهما جانبًا ثم خرج إلى الشارع ليخاطب من تجمع من أهل القرية:

– اشهدوا يا أهل البلد أولاد الغريب لم ينتظروا أربعين شيخكم وجاءوا يقتسمون الأرض.

نجح في إعلاء كفّته الخاسرة للمكسب، وكاد أن يخرج منتصرًا لولا أن بادره أحد مشايخ البلدة من جيرانه قائلًا:

– حق محمد والبنات يا أبا خضر.

فردَّ إبراهيم فورًا وكأنه تدرب كثيرًا في خلواته على إجابات الأسئلة:

– أيُّ حق؟! الشيخ باع الأرض والدار بيعًا وشراءً بعقد بَيِّن وصكوك الملكية والحجج موجودة. هل سيذهب الأهل للقضاء؟! هل سيختصمون كبير عائلتهم؟! سندهم وحاميهم ودرع البنات وأهل الشهيد محمد المصري، هم في رقبتي ليوم الدين. صادق أخ لخضر، الأرض أرضه يزرع ويحصد كما يشاء ويأكل من خيرها، وسأعلمه الفِلَاحة كما علمنا الشيخ رحمة اللَّه عليه، وعزيزة بنتي وعِرْضي واسمها من اسمي.

خرجت زينب من موقع اختفائها بين الجمع مقاطعةً بينما تصيح بغضب:

– محمد لم يمُت، سيعود وسيأخذ حقه وحق إخوته البنات وأولاده.

صمت الجميع مترقبين، حتى استدار إبراهيم وسحب ولده من يديه ودخل إلى داره مُغلقًا بابه خلفه.

انصرف الناس مستنكرين ما يحدث، وسط تمتمات العجب من الدنيا وأحوالها، ماعدا الحاج صابر الويشي فقط ذهب إلى زينب وبجواره زوجته العجوز، قدمت لها المواساة، فبادرها الرجل قائلًا:

– يا زينب، يا بنت الأصول، سأعطيك قيراطين من أرضي ترعينهما مع ولدك وبنتك، وتأكلون من خيرهما، والمحصول أنا سأتعهد ببيعه، آخذ إيجار الأرض منه والباقي حقك وحق عيالك.

انسحبت زينب بهدوء، بينما كلمات الشكر والعرفان تتردد لتمنح الرجل حقَّه.

ساعدها الحاج صابر الويشي، وقدم لها ما استطاعت يداه، كانت داره تجاور دارها يعيش بها وزوجته وحدهما، وقد بلغ من العمر ما قطع أمله في أن يهبَ له اللَّه أبناء، ولكنهما وجدا في زينب وصادق وعزيزة الابنة والأحفاد.

زرعوا الأرض بنفس البذور ورووها في اليوم ذاته، كأرض واحدة ولم يفصل القيراطين عن أرضه سوى كلمة ووعد منحه للصبيَّة المسكينة، وتعلَّم صادق على يديه كل شيء من أصول الزراعة والفِلَاحة وتربية الماشية أيضًا.

صُحبة الجد العجوز ومن بعدها الحاج صابر الويشي، أخذت من سنوات صادق الأولى أشياء كثيرة تُمنح للأطفال والصبية في مثل عمره. لم يستطع أن يجد الأصدقاء ولم يلعب بالشارع، لم يذهب ليَسترِق النظر لمشاهدة التلفزيون في المقهى مع أطفال مثله، مجتمعين أمامها حتى يطاردهم صاحبها، فيهرولون جريًا وسط ضحكات الانتصار بعدم الإمساك بأحدهم. لم ينزل إلى المصلِّية

على شاطئ البحر يبحث عن الجِنيَّة التي يرهبون بها الأطفال. ولم يتسابق مع رفاقه في السباحة للبرِّ الثاني، أو يصاحبهم في ركوب المعدية ليكتشفوا العالم الآخر هناك. لم يمتلك المال الذي يمكنه دفعه للعبور، كان صديقه دائمًا كتاب من ميراث جده. ينتظر العصر حيث تنتهي أشغال الفلاحة مع الحاج صابر ثم يختلي بكتابه فوق شجرة الجُمَّيْز العجوز، يتسلقها بمهارة ويستند بظهره على فروعها مراقبًا الطيور البيضاء بينما تلهو على صفحة النيل أمامه، حتى يأتي الغروب، فيذهب مسرعًا لصلاة المغرب والجلوس مع بضعة رجال ممن يتدارسون الدين أمام المسجد كَسُنَّة حسنة باقية من ذكريات الشيخ محفوظ. يتفاخر أمامهم بحفظه لآيات اللَّـه في تلك السِّنِّ الصغيرة، فيمنحونه الحلوى مكافأةً له وتحفيزًا فيذهب لاقتسامها مع عزيزة وخضر.

فقط خضر ابن عمه هو من كان دومًا يحاول التودُّد إليه، وكأن الصبي حمل على عاتقه مسئولية التكفير عن آثام أبيه. يأتي إلى دارهم بعد صلاة العشاء ليأكل من خبز أمه ويتبادل الأحاديث واللعب مع صادق وعزيزة. ربما أشياء بسيطة يحاولون بها أن يعودوا إلى طفولتهم وعمرهم المسلوب، انتهت تلك الجلسات الثُّلاثية، وتحولت إلى جلسات ثُنائية خارج الدار فجأةً بأوامر صادق بعد أن رأى اختلاس خضر النظر إلى عزيزة، ولاحظ تبسُّمها واحمرار وجنتيها.

ثلاثة أعوام مرت منذ رحيل الجد، وزينب تقف كل يوم في تمام التاسعة بجلبابها الأسود، واضعةً طرحتها على وجهها ومبتعدةً قدر الإمكان عن باب المقهى حتى لا تلفت نظر الرجال. وعيناها معلقتان بالتلفزيون الوحيد

الموجود بالقرية لتشاهد نشرة الأخبار علَّها تجد الخبر المنتظر، علَّها تجد ما يمنحها الأمل لعودة الغائب. تُبطئ في مشيتها أمام المقهى المفتوح كل صباح لتَسترِق السمع إلى الراديو فتسمع ما يُريح قلبها المسكين. حتى جاء اليوم الموعود بينما كانت تجلس على الزراعية تبيع الخبز وبعض الخضرة مما تُنبت الأرض، كان جمعة المجذوب يجري مهرولًا في البلد يصيح بأعلى الصوت ليختلط صوته بصوت أذان العصر:

– عبرنا... عبرنا، الأرض رجعت يا ولاد... رجَّعوها الأبطال... عملوها الوحوش

تركت مالها وحالها، وهرولت مع المهرولين من النساء والأطفال جميعهم يقصدون اتجاهًا واحدًا حيث يوجد الراديو أو التلفزيون، لا يأبهون للصيام ولا لموعد الإفطار بينما يستمعون للبيان السابع من القيادة العامة للقوات المسلحة يُبشِّرهم بدخولنا إلى سيناء:

"هنا القاهرة: بسم اللَّه الرحمن الرحيم نجحت قواتنا المسلحة في عبور قناة السويس على طول المواجهة وتم الاستيلاء على منطقة الشاطئ الشرقي للقناة...."

لم ينتظر أحد انتهاء البيان ولم يستمع المنصتون لما جاء به بعد تلك العبارة، إذ تعالت صيحات التكبير "اللَّه أكبر" لتزلزل مصر بأكملها.

أفطروا على الشربات الموزع من المقهى والبيوت المجاورة، افترشوا الأرض وعسكروا بجوار الراديو يستمعون لما يبثُّ لهم من بيانات تجاوزت منتصف الليل.

ولم تَنَمْ مصر في تلك الليلة أو الليالي التي تلتها، حتى ظهر السادات على شاشات التلفزيون بعد أحد عشر يومًا مُعلنًا النصر أمام الشعب.

في كل يوم بعدها كان كل من له ابن أو زوج بالجيش يخرج من الفجر إلى أول القرية مترقبًا عودة المنتصرين.

سيارة البريد المصري حملت خطابات لم يَتمَنَّها أحد باستشهاد أحدهم، ولكنهم قابلوها بالإيمان، وكانت الزغاريد تدوِّي مقترنةً بدموع الفراق.

أما زينب فقد كان اللَّه رحيما بها، ففي نفس يوم وصول خطاب استشهاد عوض الشحات رفيق زوجها وصديق الدرب، وقفت سيارة الجيش ليترجَّل منها محمد محفوظ المصري، مرتديًا زِيَّه العسكري حاملًا متاعه رافعًا رأسه لعنان السماء.

احتضنها، واحتضن صادق وعزيزة، تفقَّد ملامحهم بكفَّيْ يديه ودموعه فلم تتحمل أقدامهم فرحة عودة المنتصر، فانهاروا جالسين تغلبهم دموع الفرح على مصطبة المسجد.

استقبلوا العائدين بصفَّيْن من العازفين على المزمار يسبقهم رقص الخيول، ويلتفُّ الأطفال حول نساء تحمل أطباقًا مليئة بالورد والأزهار والحلوى، يأخذون منها ما يملأ كفوفهم ويلقونها عاليًا ليتسابق الجميع في الحصول عليها.

احتفلوا ثم سبقوه إلى دارهم كما طلب منهم، بينما صحب ولده ذاهبا إلى دار الشحات ليعطيه آخر ما خطَّت يد ولدهم من كلمات...

"والدي الغالي الحاج محمود/

بسم اللَّـه الرحمن الرحيم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ صدق اللَّـه العظيم،

إذا وصلك جوابي فهذا يعني أني لم أعُد، أشهدك يا أبي ألَّا تحزن وأن تطلب من أمي ألَّا تبكي، فأنا لم أمُتْ، بل ذهبت إلى ربي لأجد وعده حقًّا، دافعت بشرف عن بلدي ولم أمت ضعيفًا أو هاربًا.

لا تحزن يا أبي، ولا تلومني على عدم العودة طوال السنوات السابقة، كيف أعود وأرفع عيني في وجهك أو وجه الناس في البلد بزِيٍّ يحمل دماء أبنائهم المهزومين، كيف سأرفع رأسي وأبرر لهم وجودي بعد نكسة استُشهد فيها المقاتلون وعاد فيها من عاد مسلوب منه سلاحه وأرضه! لا واللَّـه يا أبي لم أكن لأعود حتى أرفع رأسي بينما يد تحمل السلاح والأخرى ترفع العلم، قاتلنا يا أبي كنت أنا ومحمد المصري كتفًا بكتف زرعنا وحصدنا على شاطئ القنال، وحاربنا ودخلنا سيناء فدمرنا معسكراتهم وزعزعنا ثقتهم بأنفسهم حتى كتب لنا اللَّـه العبور، استُشهدت بينما أقف على قدمي أحمل السلاح، إذا وصلك جوابي يا والدي فمعنى ذلك أن محمد المصري بخير فاسأله عني وعن سنوات اليأس التي قضيناها نترقَّب وعن لحظات الأمل وعزَّة النصر التي وجدناها.

أستودعكم اللَّـه الذي لا تضيع ودائعه، ولسوف نلتقي في جنةٍ عرضُها السماوات والأرض أُعدَّت للمتقين".

قرأها لهم... فاحتضنه الرجل باكيًا، نظر في عينيه وسأله بقلب أب:

– هل دفنته؟ هل أكرمت جثمانه؟

بكى محمد محفوظ المصري كأَنْ لم يبكِ من قبل، شد على جسد الرجل المُسنّ حتى انهار فتركه الرجل حتى هدأ، ثم عاد إلى داره، وضع رأسه على سريره، وراح في سُباتٍ كأنه لم يذُق النوم منذ ستة أعوام.

***

عزيزة، إحدى حوريات الجنة التي هربت إلى الأرض.

– يقولون إن اللَّـه يرسل لنا على الأرض بين الحين والآخر من حوريات جنته ما يجعلنا نشتاق إلى الموت من أجل لقائهنَّ، وأنا أموت في كل ليلة لا تراك فيها عيناي.

قالها خضر، بينما يجلس مع عزيزة على تلك البقعة من شاطئ النيل تُظلُّهما شجرة الصَّفْصاف بفروعها الكثيرة المليئة بأوراقها الكثيفة، بينما أقدامهما تلامس صفحة الماء الساكن فترسل موجاتها التي تنكسر بالقرب منهما في صمت كمعظم لحظات وجودهما معًا.

صمت يشاركهما به سكون الحقول الممتدة حتى الجسر، وأكوام قش الأرز وربما التفاف قرص عبَّاد الشمس نحو شمس الغروب. وقد يكسره صوت بعض الطيور تلهو بجوارهم أو استسلام فروع الشجرة لنسمات الرياح وقفز الأسماك داخل شباك الصيادين، كمحاولة أخيرة للنجاة قبل أن يحتضنها قلب القارب الخشبي الصغير.

كانت عزيزة، الصغيرة التي لم تتجاوز بعد الثالثة عشرة من عمرها جميلة بحق، تتشارك مع معظم بنات القرية في لون العيون الزرقاء ولكنها تختلف عنهنَّ ببشرتها البيضاء المرمرية، والتي لم يستطع الفقر أن يدنسها بشوائبه. ولم يجد الشقاء وتعب العمل مع أمها في الحقل أو أمام الفرن سبيله لتلويث نعومتها. يظهر جمالها بتلك الشامة الصغيرة تحت شفتيها لتتناسق مع طابَع الحُسْن بذقنها، منسابةً مع رقبتها وحتى بداية نهديها في بداية تكوينهما، لينعكس ضوء الشمس عليهما فيزيدهما اللمعان جمالًا. تحاول إخفاءه بتحريك خصلات شعرها العسلي الطويل على ما يظهر من صدر جلبابها المفتوح، فترسم لوحة فنية لفتاةٍ لا ينبغي لها سوى أن تكون إحدى عرائس البحر التي انتشر صِيتُها في أنحاء القرية، ليهاب الأطفال والشباب الاقتراب من صفحته عندما يلقي الظلام ستاره على النيل.

– فتحت عيني على الدنيا فرأيتك أمامي يا خضر، وكبرنا معًا، ولكن أباك هو من صعَّب الأمور على الجميع.

أدار وجهه يراقب القوارب الصغيرة المتحركة في النهر، ليهرب من مواجهتها، تنهد ثم قال:

– وما ذنبنا يا ابنة عمي؟ كانت الحياة مستقرة، وطريقنا مفروش بالورد وأهلنا وكل أهل القرية ينتظرون أن تعلن الأيام بمرورها موعد زفافنا.

يسألها رغم معرفته الإجابة، وتنظر إليه وهي تدرك أنه رغم امتلاكه لإجابة لا يملك الحل.

كان ناقمًا على الحياة التي فرقت بينهما منذ أن تركا منزل جدهما صغارًا

وانتقلا كُلٌّ في دار جديدة بقرار جدهما، فلم تكن المسافة بين شرق البلد وغربها هي العائق الوحيد الذي فصل بينهما. ولكن كما بَعُدت المسافة وطال الطريق بعد الأمل في دارٍ يجمعهما، كانت بداية لسيرهما في عكس الاتجاه.

يتبادلان الأسئلة دون نطقها، وتمنحهما نظرات عيونهما المتبادلة الإجابات التي لا يريدان لها الخروج من بين شفاههما.

تنظر إلى عينيه، وتسرح بخيالها لترى والدها الصامت في غرفته، فيؤرقها حاله منذ عودته من الحرب، تمنَّت لو أنه لم يصمت، لو أنه صرخ وأخذ ردة فعل ربما كان لها الأثر في رسم طريق للعودة. هي لن تعصي أباها، لا تملك أن تعصيَه، لا تملك أيَّ حق في السير بمفردها، لم تَرَ من نساء القرية من سبقتها لذلك.

عيناها لم تنظرا العينَيْ رجل سوى خضر، هو من منحها الأمان لإظهار مشاعرها.

طال الصمت بينهما، كان يحاول الاقتراب منها، ملامسة كتفها بكتفه، أراد أن يسرق إحساس القرب، يحاول منح نفسه ثقة امتلاكها، ولكنها كانت تبتعد كلما تلامسا، لتخبره أن هناك حاجزًا صنعته الأحداث بينهما، حتى لو لم يكُن ذنبهما. هما لم يعودا طفلين يلهوان في ساحة الدار أو يختبئان من بعضهما خلف أشجار البامية في الحقل مع باقي أطفال العائلة، منتظرين انتهاء أهاليهم من العمل في الحقل.

قطع صمتهما:

– غدًا سأقابل عمي محمد، وأخبره بأني أريدك، أنا أعلم أنه يحبني ولن يرفض طلبي.

لم تستطع إجابته بالنفي أو التأكيد، كانت أصغر من مشاركته قرارًا، تمنحه الفرصة دائمًا للتفكير لكليهما، حتى بعد أن منعها صادق من اللعب معه أو رؤيته، رضخت لأفكار خضر باختيار مكان اللقاء وموعده.

ولكن الأمور اختلفت الآن، لم تعُد تعلم الصواب أو الخطأ، وخضر نفسه أصبح لغزًا بالنسبة لها ربما لن تستطيع حلَّه. التعلُّق به في تلك المرحلة يُعدُّ ضربًا من الجنون، فأبوها الذي تركهم صغارًا وذهب إلى آخر الأرض لاستعادة الأرض المغتصبة لن يسمح لأخيه بسرقة أرضه، هو من أخبرهم أن الفلاح دون أرض كالجندي دون سلاح.

بالتأكيد استشهاد صديقه وعِشْرة عمره بين يديه له تأثير كبير على صمته وشجونه منذ عودته، وربما هي صدمته من واقع طمع أخيه المرير.

– خضر، لن أستطيع أن أقابلك مرةً أخرى، لا تنتظر حضوري هنا بعد اليوم، حِلّ الموضوع مع أبي وأخي أولًا.

تنهد قليلًا، ثم التفت إليها وأمسك وجهها بين راحتيه لينظر مباشرة في عينيها قائلًا:

– أراك دومًا كحبَّاتٍ من الندى تتلألأ على ورقة شجر ذابلة فتُعيدها للحياة... هكذا أنت منذ مولدك ورؤيتي لعينيك، تمنيتُك تدومين

فلا تسقطين في النهر لتروي ظمأَ أحدٍ غيري... أعلم كَمْ أنا أناني لأطمع في الاحتفاظ بكِ وحدي بينما يمكنك أن تُعيدي الحياة لعالم بأكمله.

تنهد قليلًا ثم أكمل:

– لن أتركك يا عزيزة..

هربت بعينيها، وحمرة الخجل أحالت وجنتيها إلى لون الورد، بينما تقول له:

– لا أعلم من أين تأتي بتلك الكلمات التي تجعلني أذوب بين يديك وتسلبني إرادتي دومًا.

ثم هبَّت واقفةً فجأة، وسارت بين الحقول في اتجاه العودة.

لاحقها، كان شاعرًا يمتلك من الكلمات ومعانيها ما يستطيع إقناعها دومًا بالمخاطرة من أجله، فحاصرها بحلو الكلام حتى استسلمت. أعطاها عُقدًا صنعه بيديه أثناء جلوسهما معًا من أوراق الصَّفْصاف، وأخبرها أن تحتفظ به، وعدته أنها ستحافظ عليه ما بقي من عمرها، حتى يجمعهما اللَّـه. ارتدت العقد وعاودت السير بينما كلماتها تؤكد له قرارها بعدم لقائه مرةً أخرى دون علم أبيها وأخيها.

ابتعدت، بينما يتابعها بعينيه حتى اختفت بجسدها، وظل طيفها يغازله مُعلنًا أنه لن يتركه لنهاية عمره.

***

الأيام تمر، وزوجها لم يغادر غرفته، وروتين زينب اليومي لم يتغير، مع

كل أذان تحمل الطست الصغير وجرَّة الماء وتدخل إليه ليتوضأ.

كان الطعام يدخل إليه مُغطى ومحمولًا على الصينية ويخرج بعد ساعات كما دخل لم ينقص منه سوى القليل، يتناول فقط ما يساعده للحفاظ على حياته. منذ أن أخبرته بما حدث من أخيه، وما حدث بعد وفاة أبيه الشيخ محفوظ وحالته لم تتبدل. صمت دائم يقطعه بتمتمات الصلاة التي تسمعها بينما تتلصَّص عليه عبر باب الغرفة الذي ساءت حالته فلم يَعُد يُغلق بإحكام، فتراه جالسًا على الأرض ينظر إلى زِيّ الجيش المعلق مفرودًا أمامه على الحائط كلوحة فنية تزينها بقعة من الدماء بموضع القلب، وكأنه كان يضمُّ قلبًا آخَر إلى صدره ترك علامته التي لم يَمْحُها النصر.

دفعت صادق أكثر من مرة ليدخل إلى أبيه، يتحدث معه ويواسيه، ويروي إليه من أخبار القرية ويستمع إلى أسرار الحرب والنصر من حكاياته.

صمته وشجونه استفزَّا صادق ليسأله:

- أنت لم تدفن عمي عوض يا أبي، أليس كذلك؟

شرد الرجل بذهنه، فأصرَّ صادق على تكرار سؤاله، ثم باغته قائلًا:

- ألهذا السبب يزداد حزنك يا أبي؟

دمعت عينا الرجل، ونظر إلى الفتى قائلًا:

- في الحرب يا ولدي لا وقت للحزن، نحمل رُفات أصدقائنا على أكتافنا ونستمر بالضغط على الزناد ومواصلة القتال، ندعو اللَّه أن تتوقف طلقات العدو لحظات لنُكرم أجسادهم بالدفن تحت الرمال الطاهرة قبل

أن نواصل التقدم... في الحرب لا مكان للمشاعر ولا مكان لحب أي شيء سوى الوطن حتى حب الحياة يتلاشى خلف خفقات قلوبنا بإرادة النصر، تنتهي الحرب ولا تنتهي آلامها، يعود الجميع من الحرب تصحبهم آلامُهم إلى نهاية العمر، في الحرب يا ولدي حتى المنتصر يخسر.

– ولماذا لم تأتِ يا أبي طوال تلك السنوات الماضية؟ كنَّا في أمَسِّ الحاجة إليك، وكنت أترقب دومًا سيارة الجيش بينما يأتي الجميع في إجازتهم، إلا أنت وعمي عوض، فأعود إلى الدار يغلبني الحزن، حتى إن البعض أخبرنا أنه ربما تكون قد...

قطع كلامه، فجأةً خوفًا من أن يجرح أباه، فواصل الرجل:

– إنني استُشهدت؟ هل حاولوا إيهامكم بذلك؟

– أخبرني إذن لماذا لم تعُد، ولماذا انقطعت أخبارك؟

ذات مرة استوقفت أحد العائدين بعد نزوله من سيارة الجيش وسألته لماذا لم يأتِ أبي؟ أخبرني أنك مشغول بالحرب، فسألته ولمَ لا يحارب مثلك؟! فأخبرني أن هناك مجموعةً تحارب والأخرى تستريح؟ كنت صغيرًا فلم أفهم لماذا لم تأتِ أبدًا مع المجموعة التي ستستريح..

تنهَّد الرجل وبدأ في سرد روايته:

– عندما وصلنا إلى بورسعيد كانت البيوت مهدمة، وآثار العدوان في كل مكان، كان هناك الكثير من الأُسَر تسير في عكس اتجاهنا راحلةً عن ديارهم وأرضهم، ولكن كل العجب كان من أولئك القاطنين فيما تبقَّى

من تلك المنازل، قابلونا بضحكاتهم وكأن الزمن لم يغدر وكأن الحياة تمضي سالمةً آمنة. رأيت على أنقاض الجدران كلمات التكبير وشعارات النصر، فسألت عوض تُرى من كتبها؟ أجابني بأن من كتبها يؤمن أنه سيعود لها يومًا ما منتصرًا لن تخذله يداه التي كتب بها ما يؤمن به، عندها أخذت أفكر متى سيحدث ذلك؟ كنتُ أجلس على شاطئ القنال أراقب الشاطئ الآخر وأسأل نفسي ما الذي يمنعني من القفز في الماء والسباحة إلى هناك؟ كنت أعبرُ النيل ذهابًا وإيابًا مراتٍ متتالية وأتسابق مع أصدقائي فأفوز، فما الذي يمنعني من فعل ذلك الآن؟ الذي منعني هو أنها ليست أرضي ولم يعُد لي بها حق، كنت أدخل إلى قائد الكتيبة كل يوم أسأله متى سنعبُر متى سنسترد الأرض؟ فيخبرني أن كل شيء بإرادة اللَّـه. وعندما وجد الحماس في عيني كنت أول المرشحين للمشاركة في العمليات في قلب سيناء. في كل مرة كنت أعبر مع المجموعة لنحقق انتصارًا وأعود سالمًا يزداد الأمل بداخلي، فأحدث نفسي باقتراب اليوم الذي سأذهب فيه إلى هناك ولن أعود دون رفع العلم، كنت أخشى أن أذهب في إجازة فيختارون غيري لمهمة أخرى عبر القنال، فأصمد وأقرر بأني لن أعود لقريتي إلا منتصرًا، وهذا ما حدث.

كانت جلساتهما معًا تقربهما أكثر من بعضهما، لم يصدق الرجل ما وصل له ابنه من علم ومعرفة على يد جده، وتعلُّمه للفِلَاحة والزراعة في أرض صابر الويشي، ولكن صدمته كانت كبيرة عندما أخبره بأنه لم يذهب إلى المدرسة.

ثار وغضب ونادى على زوجته، لامها كثيرًا ووبَّخها قابلت ثورته بصمت ورأسها مَحنيٌّ إلى الأرض حتى انتهت ثورته. أخبرته إنه كان يساعدها في البيت وفي الأرض، لذا فقد اكتفت بما يتعلمه في كُتَّاب الشيخ محفوظ لتوفير ما سوف تنفقه على دراسته، وتوفيره لوقت مراعاتها ومراعاة الرجل العجوز.

سرح بأفكاره قليلًا، يعلم أن كل ما يحدث هو من تَبِعات تقصير أخيه الأكبر إبراهيم، لم يُراعِ غيابه ولم يَعْتنِ بالعجوز ولا بأهل بيته.

كان يتوعَّده في كل حين، ثم يرضخ صامتًا، فأنَّى له من الجراءة أن يختصم أخاه ويتعارك معه أمام القرية.

لم يُرِد للفلاحين أن يتحدثوا بالسوء عن أبيه الشيخ الكبير الذي كان مثالًا يُحتذى به في الحكمة والعدل، حتَّى إنَّ أهل القرية كانوا يتركون العمدة ومجالس الصلح ويذهبون للاحتكام لرأيه وعدالته، كانت مصطبته أكثر عدلًا من قوانين المحاكم.

صبر، وقرر مواصلة الصبر فربما عودتُه تدفع ضمير أخيه لليقظة، وربما يعيد له ما سرق.

بينما تراوده تلك الأفكار، أخرجته طَرقاتُ باب غرفته من شجونه.

كان خضر هو الطارق، رحَّب به واحتضنه.

تحدث إليه خضر متفاخرًا ببطولته وجرأته، وشكر اللَّه على عودته سالمًا، ولم يتحدث معه عمه فيما يخص جرم أبيه. يراه صغيرًا لا ذنب له فلم يتجاوز خضر عامه الرابع عشر بعد، ودائمًا ما يضعه في منزلة صادق

وعزيزة. تربوا معًا في الدار الكبيرة قبل أن يخرج منها أخوه لداره ويتبعه هو أيضًا لدار جديدة، تنفيذًا لإرادة أبيهما الشيخ بعد المشاكل الكبيرة التي حدثت بين الزوجتين الجديدتين ومع زوجته وبناته، أملًا في السيطرة على الباقين والفوز بلقب كبيرة الدار. وبعد خروج إبراهيم وزوجته رأى الشيخ أن يخرج محمد أيضًا حتى لا يغار أخوه من قربه من والده، حتى بعد وفاة أمه وزيجات أخواته البنات، لم يوافق الشيخ على عودة أيٍّ منهما وقرر الحياة وحيدًا بعيدًا عن مشاكلهم..

لكن خضر كان دائمًا ما يترك دار أبيه ويأتي لِلَّعب في دار عمه، ربما كان يجد الأُلفة في صادق وعزيزة القريبين منه عمرًا، كما وجد الحنان في أحضان عمه وزوجته زينب.

تعلَّم خضر في المدرسة الابتدائية الجديدة التي افتتحوها منذ سنوات على يد الضباط الأحرار، عندما قرر عبد الناصر أن يكون التعليم مجانيًّا للجميع. وبعد أن أنهى الابتدائية دخل المدرسة الإعدادية في المركز التابع له قريته، كان دائمًا ما يسبق سِنَّه وزملاءَه، هو طَمُوح للدرجة التي جعلته يصرح لجميع من حوله أنه لن يكتفي بالمدرسة، وسيحاول دخول الجامعة والذهاب إلى المدينة لاستكمال تعليمه.

لم يحمل له محمد المصري أي ضغينة بل كان معجبًا به، وبصداقته لأبنائه، يعدُّهم إخوةً بالقول والفعل، والأهل لا يمانعون ذلك، على العكس ينمون دائمًا ذلك الرابط بينهم فصادق أخو خضر والقرية كلها تنعتهم بذلك.

– عمي، أنا طالب القرب منك، أريد أن أتزوج عزيزة.

صمت الرجل قليلًا في محاولةٍ لاستيعاب القول، ثم بدأ في الضحك مُوجهًا حديثه لخضر:

- زواج مرة واحدة، وأنت ما زلت ابن أربعة عشر عامًا!

- وما المانع؟ أنت نفسك يا عمي تزوجت صغيرًا.

تبدلت ملامح الرجل وتجهَّم وجهه، لم ينطق ولم يهَبْ خضر شَزْرةَ نظراته، ولكنه ازداد إصرارًا على مواصلة حديثه بعينين عنيدتين واستمر في حديثه، ليؤكد أنه يدرك ويعي ما طلب، وساءت تعبيراته في وصف مقدار حبه لابنة عمه، بينما لم يلاحظ أثناء اندفاعه ازدياد الغضب على وجه الرجل.

فاجأه الرجل بصفعة على وجهه، ثم أمسك به من ياقة جلبابه وسحبه منها، خطف من الكوَّة المحفورة داخل جدار غرفته عصا غليظة رفعها في يده الأخرى، واتخذ طريقه خارجًا من الدار مُتخذًا طريقه إلى دار أخيه.

وسط صرخات من زوجته التي كانت جالسةً على الأرض تمسك بذَكَر بَطّ لتلقمه بحبَّات الفول الناشف، ألقته بعيدًا غيرَ آبهةٍ لموته أو هروبه، وهُرعت مهرولةً خلف زوجها بينما تسحب طرحتها من خلف الباب وتنادي على ولدها ليلحق بهما، ويدرك أباه.

كان الرجل مُستشاطًا غضبًا يتمتم بكلمات غير مفهومة عن سرقة أرضه وعرضه وماله، بينما خضر مستسلمٌ تحت يده يسير في صمت ويتبعهما كُلُّ مَن يراهما من أهل القرية، حتى الأطفال يهرولون خلفهما صائحين ومترقبين للمعركة، حتى وصل إلى دار أخيه.

خرج الرجل من داره على صيحات أخيه، لم يتحدث... فضَّل الصمت حتى يستمع إلى ما جاء به الرجل.

– سرقتَ الأرض، وابنك يريد أن يكمل بعدك ما سرقته ويسرق العرض أيضًا، مال ابنك بعزيزة ابنتي يا إبراهيم؟

لم يتوقع الرجل أن يكون هذا الموضوع الذي أتى به أخاه بعد كل ذلك الغياب..

كان يتوقع قدومه، ويضع لنفسه الكثير من القصص ويطرح الأسئلة المتوقعة ويجيب عليها، ولكن لم يتوقع أن يكون سبب مواجهة أخيه هو اعتراف ابنه بحب ابنة أخيه.

قليل من الحياء والنخوة لا يزالان يوجدان داخل الرجل، لم يستطع محوهما مع ما تركه من ضميرٍ على باب غرفة أبيه المُتكفِّن، بينما يسرق ختمه المربوط في صدريَّته التي خلعها عنه المُغسِّلون.

تقدم نحو أخيه خطوات، ثم سحب ابنه من بين يديه وصفعه بقوة، ليدفعه القلم مصطدمًا بالباب المفتوح فيترنح للداخل وسط صرخات أمه المتفاجئة.

– ادخل يا محمد، دعنا نُنْهِ حديثنا داخل الدار.

– تحرَم عليَّا دارك يا إبراهيم، حتى تعيد أرضي وأرض أبي.

قالها محمد، بينما ينكس عصاه إلى الأرض، هدَّأته قليلًا الصفعة التي تلقاها خضر.

كرَّر إبراهيم دعوته له بالدخول إلى الدار، وسط رفض وعناد من أخيه.

ارتكز على عصاه بعد أن أسندها إلى الأرض، ثم واصل حديثه:

– كنتُ في الحرب من أجلنا جميعًا يا بْنَ أبي وأمي، كنتُ في الحرب أدافع عن أرضك وأرضي وأراضي البلد كلها، كنت في الحرب لأنني لم أتحمل أن أرى طائرات العدو تستبيح سماءَنا، وخشيت أن يأتي اليوم ويستبيح جنودهم نساءنا، كنت في الحرب وتركت حالي ومالي أمانة، وأنت خنتها يا إبراهيم.

كان الكثير من أهالي القرية قد تجمَّعوا حولهما، فصاح بهم إبراهيم ليبتعدوا ويعودوا إلى أشغالهم وبيوتهم، ثم وجه حديثه إلى أخيه:

– ادخل يا محمد نتفاهم بالدار، أنا لم أَخْن الأمانة، أبوك باع الأرض وهناك شهود، والأرض موجودة لم تغادر مكانها، يمكنك العمل بها من الصباح.

نظر له بتعجب، دهشة المصدوم كانت تظهر جليَّةً على ملامحه بينما رد على أخيه مستنكرًا:

– والزرع والربح، كيف سيتم توزيعهما؟!

كان إبراهيم يعلم أنه لا يريد إجابة على سؤاله، يعلم أنه فقط يستهزئ بقوله، هو يعرف أخاه الصغير جيدًا، أخاه الوحيد، أخاه المُدلَّل، أخاه الذي فضلوه عليه في كل شيء، أخاه الذي اقتطع أبوهما من قُوتِهم ومن زرعهم حتى يرسله للمدينة ليتعلم، ويعود بالتوجيهية.

كان يغار منه عندما يأتي مع القليل من أبناء القرية في الإجازات مرتدين البناطيل البُنيَّة والقمصان البيضاء تزينها الحمَّالات الجلدية ويحملون حقائب كتبهم، بينما يقف هو وسط الطين ممسكا بالفأس يحفر قناة صغيرة لتصل الترعة بمجرى الماء حتى ينساب داخل الأرض فيرويها، فلا يحق له لمس متاع أخيه حتى لا يتسخ بأثر الطمي الذي تحمله أقدامه المُشقَّقة، وكأنه كهل رغم أنه لم يكُن قد تخطى عقدَه الثاني بعد.

حتى زينب أحبها قبله، وأرادها لنفسه، ولكن ما إن أشار إليها أخوه ابن المدارس حتى رحب أهلها ولم يستطيعوا رفض طلب الشيخ، وأُقيمت الأفراح والليالي الملاح.

والدار التي طرد منها زينب وعيالها بعد موت العجوز، هو مَنْ بناها صنع قوالب الطين الخشبية بيديه مع أبيه وأمه، هو من عجن الطين والطَّفْلَة مع قَشِّ الأرز وصنع الألف طوبة التي بنى بها البيت ومَرَافقه، كل طوبة في الدار تحمل نقطة من عرقه وجهده، حتى مصطبة أبيه هو من هيَّأها لتصير الكُتاب الذي تتفاخر به العائلة بأكملها.

بالتأكيد هو الأحق بما صنعته يداه، ولا حقَّ لأخيه فيما ورث من الكفيف الذي لم يَرْعهُ كما فعل هو.

– لك نصفُ ما نزرع ونحصد يا محمد.

قاطعه محمد:

– تمنحني حقي هبةً منك، حد اللَّـه يا إبراهيم بيني وبينك.

قالها الرجلُ وتركه أمام بيته وانسحب مُكررًا الجملة ثم التفت إليه قبل أن يبتعد، مُوجهًا إليه التحذير:

- وأبْعِد ابنك عن بنتي يا بْن الأصول..

***

بعد صلاة المغرب، بينما يجلس أعيان البلد وكبار رجالها عمرًا ومقامًا متربعين على الحصيرة أمام المسجد يستمتعون بنسمات الهواء ورائحة الخضرة، كانت الأحاديث الجانبية تأخذ مكان دروس الدين في بعض الأحيان، يناقشون بعضًا من أحوال أهل البلدة وربما في بعض الأحيان يُخرجون كشف المحتاجين من عائلات دون عائلها أو النساء الأرامل، فيقسمون المال الموهوب داخل صندوق الجامع على المستحقين، ويدرسون المشكلات أو النزاعات بين أبناء القرية لإبداء الرأي والمشورة في حلها.

كان الحاج صابر الويشي يتوسط الجمع، انتظر حتى انتهى الجالسون من أحاديثهم ثم بدأ حديثه إليهم مطالبًا بالبحث في أمر محمد المصري وما حدث من أخيه في غيابه.

كان الجميع يعلم ما حدث جيدًا، فما حدث في غرفة الغُسل كان مكشوفًا للجميع. فلم تنفع جدران البيت في حجب ما فعله إبراهيم المصري، الجدران الطينية في بيوت القرى لا تستطيع حجب الأسرار ولا تستطيع إخفاء الحقائق، ولكنهم كانوا يتجاهلون الخوض في ذلك الحديث، يتحججون بأنها أمور عائلية ومشاكل داخل أسرة، وهم يدركون تمامًا أن لا أمور عائلية

داخل أسوار قريتهم يمكنها أن تنال الحماية أو الخصوصية التي تمنع باقي أهل القرية من الخوض فيها. فالأخبار تنتقل فور حدوثها والخوض فيها مع إضفاءِ كَمٍّ لا بأس به من الحبكات وتزويدها بالإشاعات إذا لزم الأمر، لتأخذ مكانًا كبيرًا من حكاياتهم حتى تظهر حكايات جديدة.

هربت العيون بعيدًا تجنبًا لتبادل نظرات قلَّة الحيلة، كانوا يهابون إبراهيم المصري ويتجنبون مواجهته، حتى لو لم يُظهروا ما يُبطنون خوفًا من بطشه وإنَّ بطشَ إبراهيم المصري لشديد.

لحظات نادرة من الصمت الذي لم يكُن له مكانٌ في تلك الجلسات استفزَّت أحدهم، فقطعها قائلًا:

– فلنترك إبراهيم المصري وشأنه، ألا يمكننا أن نجتمع ونذهب إلى محمد ونحاول التهوين عليه ومساعدته بقدر الإمكان، الرجل لا يمتلك عملًا ولا مصدر دخل حتى الآن.

هنا ردَّ الحاج صابر:

– ولكنه عزيز النفس لن يقبل مساعدتنا، دعونا نفكر في حل دون أن نؤذيه أو نصيبه بما يُخجله منَّا.

طال الحديث بينهم حتى قطعهم أذان العشاء، قاموا للصلاة حتى انتهوا منها ومن سُنَّتها، وبينما هم واقفون أمام المسجد لإلقاء سلام الرحيل والعودة إلى ديارهم، قال لهم الحاج صابر الويشي إنه فكر في حل وشاور به أهل بيته وسيعرضه على محمد علَّه يوافق.

في طريقه إلى داره كان الرجل يُنهي تسبيحات ما بعد الصلاة، يلقي التحية على المارِّين به، حتى توقف عند دكان المغاوري بقال القرية، وكان لديه كل ما لذَّ وطاب من بضائع، حتى حلوى المدينة التي لم يعرفوها في القرية إلا من خلال دكانه، وكانت باهظة الثمن لا يأكلها إلا من استطاع إليها سبيلًا.

أخرج الرجل من جيبه مبلغًا من المال وتبضَّع به كاملًا من الدكان ألذ الحلوى والشاي والسكر، ثم مرَّ بالفاكهاني وملأ كيسين كاملين من الورق بالتفاح الأحمر والموز والبرتقال، ونادى على أحد الأطفال ممَّن يلعبون بجوارهم ليحمل عنه ما يشتري، وكانت تلك فرصة مثالية لذاك الطفل للربح السريع فربما يمنحه ريالًا مقابل المشوار.

واصل الحاج صابر طريقه متجاوزًا باب داره حتى وصل إلى الدار المجاورة، ثم وقف مصفقًا بكلتا يديه بجوار الباب الكبير لدار محمد المصري مُناديًا على أهل الدار ليستروا أنفسهم قبل فتح الباب كما كانت العادة في قريتهم وبيوت الأصول.

ثوانٍ قليلة حتى فتح له صادق مُرحِّبًا به، ثم أدخله إلى المضيفة وكانت أول غرفة على اليمين تطلُّ على ساحة الدار وتجاور غرفة نوم مخصصة للضيوف، تلك الغرفة التي نزل بها أبوه منذ عودته من الحرب رافضًا أن يدخل غرفته حتى لا يزعج زينب في يقظته ونومه غير المنتظم.

أخرج الرجل من الحلوى وأعطى لصادق، ثم سأله عن عزيزة فجاءت مُرحِّبة به، تضع طرحتها غير المربوطة على رأسها بإحكام، منحنية لتقبِّل

يد الرجل العجوز، غازلها الرجل حتى احمرَّت وجنتاها، فزادتها جمالًا، فأخرج من الحلوى وأعطاها سائلًا إياها بينما يضحك معها هل تريدها أم أنها قد كبرت ولم تعُد مثل الأطفال، أجابته بالنفي بينما تأخذ الحلوى من يديه، والسرور يرسم خطوطه على أسفل خدودها لتنفرج شفتاها بضحكتها الجميلة. لم يمضِ الكثير حتى جاءه صاحب الدار مُرحِّبًا بتلك الخطوة العزيزة، وبعد أن تبادلا عبارات الترحيب، وأدخلت له زينب براد الشاي والأكواب، وقدمته له مؤكدة أنه دون سكر كما يحبه الرجل، قابلها بابتسامته ووجَّه حديثه إلى زوجها ليخبره كَمْ كانت زينب أمينة على عِرْضه ومُشيدًا بها وبما فعلت في غيابه، مستكملًا إطراءَه بمدح أهلها ممن ربوها على الأصول.

قابله محمد بنظراتٍ خَجُولة، ازدادت بشكره على هداياه وعلى كل ما فعله من أجل زينب وعياله أثناء غيابه.

قاطعه الرجل ليرفع عنه الحَرَج قائلًا:

– أنت وزوجتك وعيالك ولادي يا محمد، ربما لم يُرِد اللَّـه أن يأتي من صلبي ولد يحمل اسمي، ولكن صدقني عوضني اللَّـه بكم وصادق ساعدني بالأرض وكأنه أكثر من ابن.

تنهَّد الرجل بينما يقف للمغادرة، ثم أكمل حديثه:

– وبالمناسبة يا محمد، أنا أريدك أن تأتي معنا غدًا لصلاة المغرب كما كنت تفعل سابقًا، أم أنك أقلعت عن الصلاة؟

قالها لائمًا، مما جعل محمد يرد سريعًا:

– أبدًا، لم أترك فرض اللَّه قط، ولكن الظروف وحالتي النفسية جعلتني أعزل نفسي قليلًا عن الناس.

لم يردَّ الرجل فواصل محمد حديثه:

– كما إنني أخجل من نظرات الرجال بعد ما فعله أخي معي، وأصبحت البلدة بأكملها تعرفه.

قاطعه الرجل:

– لك رَبٌّ كريمٌ يا محمد، تعالَ غدًا إلى الصلاة "العبد في التفكير والرَّبَّ في التدبير".

ذهب الرجل وترك محمد المصري لأفكاره التي تلاحقه منذ عودته، لا يعلم من أين سيكسب ماله، وكيف سينفق على بيته وأهله. كان قد منع زينب من الخبيز والخروج لبيع الخبز أو الزراعة في أرض صابر الويشي، اعتَقَدَ منذ قليل أن الرجل جاء إليهم ليحدثه عن استعادته أرضه، ولكن لم يتحدث الرجل عن الأرض من قريب أو بعيد.

في اليوم التالي، وبعد صلاة المغرب بينما يهمُّ للعودة لداره طالبه الحاج صابر بالجلوس معهم أمام المسجد، فرضخ لأوامره دون جدال، رحب به الرجال من كبار البلد وبعضهم قدم له واجب العزاء في أبيه وفي صديق عمره، حتى قاطَعهم الحاج صابر متحدثًا:

– أريد أن نتحدث اليوم في أمر محمد المصري يا رجال، الآن ومنذ

عودته وولده ترك الأرض كما تعلمون، والأيام تمرُّ والموسم على الأبواب ولا يمكن ترك الأرض بهذا الحال.

قاطعه محمد المصري:

– يا حاج، كنتُ عازمًا على إعادة الأرض إليك، ولكن...

قاطعه الحاج صابر:

– ومَنْ تحدث عن استعادة الأرض، ومن أخبرك أني أريدها، أنا فقط أريد لك الخير، الأرض خرجت من ذمتي إلى زينب وأولادها وطالما أنك عدت بالسلامة، فلتتسلَّم الأرض وتواصل العمل، الأرض كلها أمامك يا محمد ازرعها وامنحني نصيبي وأنا راضٍ، كان من الممكن أن أخبرك بهذا الحديث أمس، ولكني قصدت أن نتحدث اليوم حتى يشهد الرجال على كلامي.

صمت الجميع وكأنهم يتدبرون ما قيل من الرجل حتى قطع محمد صمتهم:

– ولكن يا حاج، لن أكون مرتاح الضمير وأنا أزرع في أرض ليست أرضي.

فكر الحاج صابر قليلًا ثم قال:

– إذًا، استأجرها، استأجر القيراطين التي كانت امرأتك تزرعهما، يحكم الرجال بيننا على مبلغ الإيجار وأنا راضٍ بحكمهم ثم نكتب العقد، يعلم اللَّه أني لم أريد منك أي مقابل للإيجار، ولكن طالما أن هذا ما يرضيك

وما سيجعلك تعمل براحة فليكُن ما تريد.

حكم الرجال بينهما، بينما ذهب صادق الذي كان يشاركهم المجلس كعادته منذ صِغَره إلى دكان المغاوري البقال وأحضر نموذج عقد إيجار مطبوع وقلمًا، كتباه وأشهدا على العقد شاهدين، لتقطعهم صلاة العشاء، صلُّوها جماعةً ثم غادروا إلى ديارهم إلا محمد المصري الذي اتخذ طريقه إلى الأرض. لم يَعْنِه الظلام الحالك ولا طول المشوار حتى وصل إليها وجلس وسطها يتأملها ويفكر في حاله، صلى ركعتين على طينها وناجَى اللَّه حتى خضَّب الطين بدموعه، ثم عاد إلى داره، عبر الباب ثم وقف قليلًا ينظر إلى غرفة الضيوف حيث يقيم، تركها بصمتٍ وعاد إلى غرفته.

***

استمرت الحياة، وما بين إشراق الشمس وغروبها المتتابعين، كانت الأرض تتغير ويتبدل حالها. من مسطح بُني اللون تخترقه الشقوق غير المنتظمة يجتاحها العطش إلى جرعة ماء تروي ظمأها. ومن بواقي المحصول السابق المُصفرّ لونه من أثر جفاء الأيام، إلى أرض منتظمة بدَّلها الفأس لخطوط متوازية فصار اللون المحروق أفتح، واختفت البقع الصفراء ونبت مكانها بدايات اللون الأخضر حتى كسا الأرض بالكامل، وأصبح النسيم يحمل رائحة الخضار بعد أن كان كل ما يحمله هو الغبار.

اشتياق محمد المصري إلى الطين. أعطاه من الطاقة ما لا يمتلكه أي فلاح آخر لديه من الأدوات ما يساعده في الحرث. اشتياقه ليوم الرَّيّ الأول وإحساس قدمه يغوص في الطين متنقلًا داخل الأرض يتابع تساوِي

جريان المياه بين خطوطها، هو ما دفعه للعمل أيامًا متواصلة. لا يمتلك سوى فأسه وفأس ولده الذي تابعه منبهرًا من قوته وجَلَده وتحمله غير آبهٍ للشمس ولهيبها، ولا للرياح وقوتها. منذ خروجهم معًا قبل أذان الفجر ليؤدوا صلاتهم ثم ينطلقون إلى الأرض يضربون الفأس في أرجائها.

مجرد قيراطين، ولكنهما منحاهما من الخير ما لم يمنحه فدانٌ يتم زراعته بلا مبالاة، معروف بين الفلاحين أن الأرض لا تعطي خيرها إلا لمن يهتمُّ بها ويحبها حق الحب.

عاد محمد المصري لرفع رأسه بين أهالي بلدته، أخجله الجفاءُ الذي صار بينه وبين أخيه الأكبر، لكن محا خجله انبهارُ الفلاحين ورواياتُهم حول ما فعله بالأرض في زمنٍ قصير.

باع المحصول، واشترى حمارًا ثم تَبِعهُ بالبقرة وتلاها بغنمتين، رَمَّم الحظيرة الملحقة بالبيت، وساعدته زينب في العمل في الحقل، وفي تربية المواشي وحَلْبها، وبيع الألبان ومنتجاتها كل صباح، واستقرت حياتهم وعرفوا طعم الرخاء.

أما صادق، فقد حاول أبوه كثيرًا أن يُلحقه بالمدارس، كان يريد أن يراه حاملًا لشهادةٍ بجوار ما يحمله من علم وفِقْه مما علَّمه جدُّه إيَّاه في كُتَّابه، لكن فارق العمر بينه وبين زملائه كان يزعجه، سخريتهم الدائمة منه جعلته لا يعرف معنى الصداقة الحقيقية. فكان دومًا يترك المدرسة ويهرب إلى الحقل الذي لم يعرف إلى غيره سبيلًا، سوى صداقته مع شجرة الجُميَّز العجوز والكِتاب، فلم يعطِ قلبه أبدًا لغيرهما. عاش وحيدًا، وبعد

فراق خضر زادت غربته. كان يتعذب كلما رآه مارًّا بدارهم يختلس النظر إلى شُباك أخته، أحزنه حزنُها ولكن أمر اللَّـه كان نافذًا، فخيانة عمِّه لن يمحوها حب خضر لعزيزة.

حتى خضر اختلفت نظراته لصادق وتغيَّرت، فما فعله به عمُّه أمام أهل البلد ظلَّ عارًا يُخجله كلما وقعت عيناه في عين المارَّة أو الشباب ممَّن هم في مثل عمره. أثر الصفعة لم يَمْحُها الوقت ولا الشهور التي تتابعت، يتحسَّس مكانها كلما تذكَّر عزيزة، ويدرك أن السنين أيضًا لن تمحو أثر الإهانة.

حاول خضر كثيرًا أن يلتقي بها، كان يختلس النظر إليها عبر النافذة حتى تتلاقى أعينهما، ثم يذهب إلى المكان حيث اعتادا اللقاء قديمًا. يظل ينتظرها حتى تغرب الشمس فيفقد أمل اللقاء، لا يتحدث سوى مع الطيور التي تلهو على صفحة النيل آمِلًا أن يذهب أحدهم إليها ويُخبرها بما يجيش داخل صدره وينبض بين ثنايا أضلعه. تبدل حاله فأصبح يسير في البلدة كالمجذوب يتلو الشعر وحلو الكلام على كل مَن يقابله، حتى ساءت حالته وتدهورت، خفَّ وزنه وترك السُّهاد وطول السهر علامته السوداء حول عينيه.

وصلت أخباره إلى عزيزة، انتظرت عينيه لتواعداها أثناء اختلاسه النظرات عبر النافذة في موعد مروره اليومي، فلحقت به إلى مكانهما. كان جالسًا على نفس حاله ممسكًا بعود من القصب البرِّي النامي على ضفاف النهر، يُشكِّله ويثقبه باستخدام منجل ربما تركه فلاح على رأس أرضه ليصنع منه نايًا بدائيًّا بينما يراقب جريان المياه ودوائرها، فاقتربت حتى جلست

إلى جواره، خيَّم عليهما الصمت فلم يتحدث ولم ينظر إليها. لدقائق مرت كالدهر كانت تنتظره دون جدوى بينما هو منهمك فيما يصنع حتى انتهى وبدأ في محاولة العزف، ليخرج الناي الذي لا تعرف نغماته سوى الحزن أول نغمات أنينه..

– كيف وصلت لهذا الحال يا خضر؟

قالتها عزيزة، محاولةً التماسك، وألَّا تنهار أو تُظهر ضعفها أمامه. كان يعنيها حاله، وكانت تعلم إجابة السؤال، وتعلم أيضًا أنها لا زالت لا تملك الحل، لم يكن ما تشعر به تجاهه مجرد تعاطف، كان حبًّا قاسيًا يقتلع قلبها من جذوره ويلقي به بعيدًا فلا تستطيع أن تعيش دون خضر، لكن العجز والقهر سجناها داخل جدران غرفتها بلا حيلة.

– فما بال الهوى يا عزيزة كلما اقتربنا يفرقنا، وكلما افترقنا يعذبنا، وكلما زاد العذاب زدنا صبابةً، وما للمُتيَّمين دواء غير الهوى.

صمتت وصمت. كانت محاولاته للعزف على الناي فاشلة، ولكن أنَّات الناي تطفو على نَظْم الألحان، فلغة الأنين يعرفها كل العاشقين.

تابع حديثه إليها:

– لماذا لا نهرب يا عزيزة؟ لماذا لا نهرب ونتزوج بعيدًا عن أبي وأبيك ومشاكلهما ومشاكل تلك القرية؟

صدمها سؤاله، فصدمته بالإجابة:

– هل تقبلها على ابنة عمك، هل تقبلها على اسم الشيخ محفوظ؟

حاول مقاطعتها فواصلت:

– لستُ أنا يا خضر، أنا عزيزة ابنة البطل محمد المصري، وأخت صادق المصري الحامل لكتاب اللَّـه، وجَدِّي محفوظ المصري مَنْ علَّم أهل القرية وحكم بينهم بالعدل.

غلفهما الصمت وأحاط بهما، دموعهما تحدثت لتؤكد لهما أن كل الطرق تؤدي إلى الفراق، ولكن تلك الطرق لن تسلكها سوى الأجساد، أما روحاهما فقد تعلقتا بعقد الصفصاف المتدلِّي من جيدها، ما زالت تحتفظ به لترتديه كلما التقيا، حتى بعد أن تحول لونه واختفت أوراقه الخضراء ولم يتبقَّ منه سوى الفرع الخشن الذابل.

– انساني يا خضر.

قالتها ورحلت لتخفي دموعها وتبع رحيلها اتجاه الغروب فالتف قرص دوار الشمس خلفها، تلك المرة لم يتحرك خضر، ظل ثابتًا كتمثال فقدَ روحه.

رآها صادق أثناء دخولها إلى دارهم، فاستوقفها متسائلًا أين كانت؟ أجابته بصوت متهدج بكلمات لم تشفع لها سبب تأخرها، وهربت إلى غرفتها، تبعها إلى الغرفة فلم تلحظ وجوده خلفها، كانت تجلس على طرف سريرها تواجه حائط غرفتها. ظل واقفًا يشاهدها حتى بدأت في البكاء، اقترب منها بصمت واحتضنها، شعر بكل ما تريد قوله دون أن يتحدثا.

كان يريد البكاء معها، يعلم أنها فقدت حبيبًا، ولكنه يعتقد أن خسارته كانت أفدح، أخيه وصديقه ورفيق طفولته، تماسك أمامها وظل على صمته

حتى أخرجهم صوت خضر الواقف أمام نافذتها يلقي من حلو الأشعار.

أغلق صادق النافذة بقسوة، وخرج إليه معاتبًا. كان أول حديث يدور بينهما منذ فترة طويلة، لامه صادق على أفعاله وتعجب لعدم خوفه على سُمعة ابنة عمه.

بينما كانت عينا خضر معلقتَيْن بالنافذة، وآثار الدموع لم تُزَل من وجهه بعد، أجابه بكلمات متقطعة تحاول أخذ طريقها لتكوين جمل مفهومة أنه طلبها للزواج، هو أوْلَى الناس بها، ولكن هذا ما جناه عليه أبوه فما ذنبه؟!

صمت صادق، فواصل خضر حديثه:

– أصبحتُ وحيدًا يا صادق، وحيدًا بلا أخ ولا صديق.

كانت أوامر محمد المصري قاسية، وكان صادق يخشى عودة أبيه ورؤيته لهما فيظنهما يتسامران عاصيًا لأوامره.

احتضن خضر سريعًا حتى يهدأ، ثم تركه قائلًا:

– سأتحدث مع أبي، ولكن حتى حينها ابتعد عن بيتنا يا خضر، واترك اللغو عن ابنة عمك حتى لا تشوِّه سيرتها في البلد.

نفض خضر يديه متململًا منه ومبتعدًا خطواتٍ للخلف، قائلًا بتَحدٍّ:

– فلتقنعه يا صادق، أخبره إنه سيدفع ثمن عداوتي إن لم يوافق.

كرر جملته مراتٍ متتاليةً بينما يبتعد عن الدار.

تابَع خضر أثناء ابتعاده بينما يستوقف كُلَّ مَارٍّ في طريقه ليخبره إنه يحب

عزيزة وعمه لا يريده، ثم يخبر التالي أن ذنب أبيه هو ما جنى عليه، ثم يجلس ليقول الشعر فيستمع له المارَّة متحسرين على عقله الذي بدأ يفقده.

شعر صادق بالضيق، الغيرة والنخوة كانت مثل النيران الحارقة، فعاد إلى داخل الدار، ثم دخل غرفة عزيزة حاملًا بيده الأخشاب والمسامير، أغلق نافذتها وغادر.

***

لم يسأل الرجل عن سبب غلق النافذة، كان يعي ما يحدث، يراقب أسرته من بعيد ولأنه يعلم أن الحل لن يرضيَه فلم يجادل أو يناقش وفضَّل التجاهل.

جلسات صادق معه كانت مثل بدايات الحكايات تحاول التمهيد لطرح المشكلة، وفي كل مرة كان يفشل صادق في تشويقه فيملُّ سريعًا ويغلق الرواية وينتهي الحديث بلا جديد.

حتى قرر صادق أن يختصر المقدمات ويواجه أباه، بينما يجلسان معًا ذات يوم بعد أن عادا من الحقل في أحد أيام الحصاد، كان وجه أبيه مشرقًا وعلامات الرضا بجمال ونجاح زرعة القمح لهذا الموسم ترسم خطوط الفرح على وجنتيه، فوجدها صادق لحظاتٍ مناسبةً ربما يستطيع فيها أن ينال مراده ويُحوِّل رفض أبيه إلى شيء من الموافقة.

فاجأ أباه بقوله:

– ما ذنب خضر يا أبي، أنت رفضته منذ ثلاثة أعوام بسبب صِغَر سِنِّه،

ومضت الأعوام والخلاف بينك وبين عمي لم يُحلّ، فما ذنب خضر وعزيزة؟

تحولت ملامح الأب فجأة، عندما سمع ما لا يرضيه، ولكنه فضَّل الصمت عن الرد، فواصل صادق:

– يا أبي، عهدتُك دائمًا صاحب منطق ورأي سديد، ألم يَقُل اللَّه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾. لا تأخذ خضر بذنب أبيه.

ترقرقت عينا صادق بالدموع، فحنَّ قلب أبيه، ولم يُعقِّب، وتابَع صادق حديثه:

– تربينا معًا، وفي غيابك تحملت الكثير من المسئولية فلم أجد صديقًا ولا رفيقًا غيره، ثم حرمتني منه.

لم يكن صادق يدافع عن حب عزيزة فقط، كان يدافع عن نصفه الآخَر، عن ظله كما كانوا يدعونهما في البلد عندما لم يكُن من السهل أن ترى أحدهما بمفرده بينما يترعرعان في كنف جدهما.

– الأصول يا صادق أن يأتي أبوه إلى دارنا ويطلب عزيزة لخضر، وإبراهيم المصري لن يدخل داري طالما يده ما زالت ملوثة بأثر الخيانة.

– ولماذا لا نصدقه يا أبي، أليس من الممكن أن يكون جدي قد باعه الأرض والدار كما يقول؟

تبدلت ملامح الرجل من جديد، وهبَّ واقفًا ليصيح به:

– جدك، رحمة اللَّه عليه، رجل الدين وحامل كتاب اللَّه يعرف جيدًا

حقوق أبنائه، هو من كان يحكم للمواريث في البلد كلها، لن يقوم بحرمان أبنائه لصالح أحدهم.

لم يُجِبْ صادق، وتابَع والده القول:

– انظر إلى حالنا، نزرع ونحصد في أرض غريبة، ونعيش اليوم بيومه، وعمَّتاك لم يعُد لهما ظهرٌ لتستندا عليه، سواي، وأنا سأعجز عن نجدتهما فما باليد حيلة يا ولدي، والسبب في كل ذلك هو عمك، لا يا صادق واللَّه لن يأخذ خضر عزيزة مهما حدث، إلا إذا أعاد أبوه أرضي ومالي.

انحنى رأس صادق، يحني الفَقدُ الرؤوس فلا تجد بديلًا يستطيع أن يساعدك في رفعها ومنح جسدك المحني الاستقامة مُجَدَّدًا.

استأذن أباه فباغته قبل أن يغادر قائلًا:

– أمك تحدثت مع خاطبة لتجد لعزيزة زوجًا يا صادق، قبل أن يجعل ذلك المجنون سيرتها على السنة البلد بأكملها.

لم يُعقِّب صادق، تركه مُغادرًا ليجد عزيزة في ساحة الدار تتظاهر بتنظيفه، التفتت ولم تجعله يرى وجهها، ولكنه لم يَحتجْ لرؤية عينيها ليدرك ما تحمله من هموم.

وقف ينظر إليها وإلى أمه الجالسة تراقب ما يحدث في صمت، محاولةً رسم اللامبالاة على ملامحها بينما تمسك بصينية كبيرة من الأرز تنقيه من الشوائب من قش وحصى.

أخرجه من صمته صوتُ طرقاتٍ على باب الدار وصوت زوج عمته

سيد الغريب مُناديًا، غادرت زينب صحن الدار وتبعتها عزيزة، ليفتح صادق الباب داعيا القادمين للدخول إلى غرفة الضيوف، ولحقهم أبوه مُرحبًا بزوجَيْ شقيقتيه: سيد ومصطفى الغريب.

تبادلوا عبارات الترحاب، لدقائق ليست طويلة حتى دخلت عزيزة بالشاي لتلقي التحية على زوجَيْ عمتيها وتغادر.

ارتشفوا من الشاي، رشفات متتالية ثم تحدث سيد الغريب قائلًا:

– جئنا لنتحدث بخصوص ميراث زوجتينا يا محمد، سنوات كثيرة مرت منذ وفاة الشيخ محفوظ ولم يتغير شيء، اعتقدنا أنك ستعيد الحق إلى أصحابه عندما تعود من الحرب، ولكنك لم تتحرك، وعام تلاه عام، فما الحل؟

انتظره محمد المصري حتى أنهى حديثه ثم تنهد قائلًا:

– فلنُصلِّ على سيدنا النبي، بالمحاكم والقضايا لن نحصل على شيء، فالأوراق سليمة وصحيحة مع إبراهيم، وبالقوة أيضًا لن نحصل على شيء.

قاطعه مصطفى قائلًا:

– ما هذا الخنوع، هل هذا ما تعلمته في الجيش أن تترك حقك ومالك وأرضك؟

احتدَّ محمد المصري على حديثه مُقاطعًا:

– اسمعا أنتما الاثنين، أنا أستطيع الحصول على حقي وعلى أرضي ولا أخشى أحدًا، ولكني لن أقف أمام أخي الأكبر مُعاديًا مهما حدث، لن أمنح

أحدًا الفرصة لينتهك سيرة الشيخ محفوظ المصري، ولن أجعل مَن يترحم على سيرته العطرة يستبدل بها التحسر على صراع أبنائه.

بدأ الحديث يأخذ منحنى أكثر ندية، كان صادق يتابع في صمت بينما يستند إلى الباب فيسده بقوة جسده، وكان اللَّـه قد منحه من القوة والجسد القوي ما يُرهب به من تسوِّل له نفسه معاداته أو والده، فكان أهل القرية يخشونه بشدة ويحسبون له ألف حساب.

هبَّ الاثنان واقفين، ليغادرا بينما يقول سيد مُوجهًا حديثه لأخيه:

– ما باليد حيلة، كما أخبرتك يبدو أن محمد وإبراهيم قد اتفقا معًا ودبَّرا أمرهما ليأكلوا حق البنات.

استوقفه محمد لائمًا ومُعاتبًا، فلم يكُن أبدًا كاذبًا ولا مُخادعًا، حاول إقناعهما بأنه ليس محمد المصري مَن يأكل حق أخواته البنات، فما كان من أحدهما إلَّا أن باغته بقوله:

– وما أدرانا؟ إذا كان الكبير قد فعلها وسرق أباه بينما يُكفِّنه.

أوجعته الكلمة فسقط جالسًا، وتوتر صادق لهيئة أبيه فحاول اعتراض خروجهما، ولكن نطق اسمه فقط من أبيه جعله يُفسح طريقهما.

قبل أن يغادرا باب الدار، قال سيد الغريب صائحًا:

– تذكَّر يا محمد، جئناك قاصدين الخير، وخرجنا من عندك بلا نتيجة، فالعاقبة على مَنْ أنكر وعلى من لم يمدَّ يده للحل.

لم تُعطه الحياة ما يريد، كانت المشاكل هي مَنْ تبحث عنه بلا حيلة منه، لم يكن يريد سوى الحياة، يريد أن يزرع ويحصد ويأكل من عمل يديه، يريد الخير لأسرته دون مشاكل ودون صراعات ويبحث دومًا عن سيرة عطره يتذكَّرها الناس حينما يفارق. قرر منذ عودته أنه لن يُعادي أخاه، وهو الذي رباه الشيخ محفوظ على المحبة فلم يُعادِ أحدًا قط، فهل تكون عداوته الأولى لأخيه؟ يعلم إجابة سؤاله ويقتنع بها تمام الاقتناع، ولكن العداوة دومًا تحدث بين طرفين فحتى لو كنت مُسالمًا ربما تصيبك من الطرف الآخَر، وأصعب ما في الأمر أن تصيبك من حيث لا تحتسب أو تتوقع، قد تغامر بالدخول في حرب تخرج منها منتصرًا بعد أن تفقد ما هو أهم من مكاسبك المادية.

خلد محمد المصري للنوم واستيقظ على رائحة الدخان، غمرته وخنقته على الرغم من أن داره كانت تبعد كثيرًا عن مكان الحريق، لكن صرخات زينب وعزيزة وهرولة صادق مُغادرًا الدار بعد الرعب الذي أصابهم من صوت طرقات المنبهين على باب دارهم نقلت لأنفه رائحة الدخان من أرضه إلى غرفة نومه، حتى لفحات النار أصابته، دون ترك آثارها على جسده فما تركته النيران من أثر كان أعمق.

لم يغادر سريره، حتى عاد صادق مُتشحًّا بالسواد، فخرج له متسائلًا:

– هل نجا شيء من المحصول؟

لم يتحدث صادق، يعلم ما يدور بداخل أبيه جيدًا.

كرر الرجل سؤاله لمرات متتالية بلا جدوى، حتى امتلأت الدار برجال

القرية، مواسين له وداعين اللّـه أن يعوضه.

لم يسمع ولم يَرَ ولم يتحدث، كان الأمر كالحُلْم، حلم ظهر به أخوه إبراهيم المصري، عابرًا إلى داخل الدار بصورته المَهِيبة.

كانت المرّة الأولى التي يدخل فيها إبراهيم دار أخيه منذ عودته، رآه ضخمًا بأذرع طويلة وأيدٍ تملؤها النيران.

تخطى الواقفين حتى وصل إليه، فوقف أمامه مباشرةً قائلًا له:

– لستُ أنا يا محمد، لست أنا من فعلها، ربنا يعوض عليك.

قالها ثم خرج، وخرجت معه أنفاس محمد المصري فسقط مَغشيًّا عليه.

***

لم يتبقَّ من محصول القمح سوى أكوام من القش الأسود، يشبه في لونه قلب حارقه الذي استباح شقاء موسم كامل من الحرث والبذر والرَّيّ والمتابعة، حتى وقفت الأعواد شامخة فأتاها بقسوة لتصبح كالصريم.

الجاني مجهول، والحريق قد لا تشوبه أي شبهة جنائية وأُقفل المحضر في ساعته وتاريخه.

قالها معاون المباحث نقلًا عن محضر النيابة، ووجد محمد المصري نفسه واقفًا بجوار ولده في أرضه بلا مال ولا حولَ ولا قوة.

– يا أبي، ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للَّـه وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، ما زلنا نملك الصحة والعافية، والفأس بين أيدينا، لنعوض ما قد حدث.

رفع محمد المصري رأسه إلى السماء مرددًا:

- ﴿إِنَّا لِلَّه وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، لكن أنت تعلم يا صادق نحن نعيش اليوم بيومه، قُوت الغد من عرق اليوم والمحصول يسترنا يا ولدي لموسم كامل.

بإيمان شديد يبدو أنه إرث صادق من جدِّه رَبَّت على كتف أبيه قائلًا:

- ومن يملك قُوتَ يومه كأنما حِيزَت له الدنيا يا والدي، دعنا نبدأ العمل من جديد لنأتي بقوت الغد.

لحقت بهم عزيزة في الحقل تحمل فأسًا بيدها بينما تسير إلى جوار أمها، التي تحمل على رأسها صينية صغيرة مغطاة بها القليل من الطعام.

جلسوا على رأس الأرض يتناولون طعامهم، وزينب تجلس إلى جوار زوجها تهوِّن عليه وتمد إليه يدها بما صنعت لتمنحه قليلًا من الطاقة، كي تساعده في مهمته بإعادة إعمار الأرض المحترقة.

لم يتطرقوا للحديث عن الفاعل، ولم يتساءلوا عن ماهيَّته، هم أكثر سلامًا من التفكير في العداوة.

عانوا كثيرًا لإعادة تجهيز الأرض وإزالة وتجميع أكوام القش المحترق، وعزيزة تساعدهم ساعدًا بساعد وكأنها ثالث رجال أسرتهم الصغيرة. تحملت المسئولية ولم ترضخ لكلمات أبيها بالعودة إلى الدار ومساعدة أمها في العجن وصنع الخبز والأجبان لبيعها حتى يستطيعوا كسب قُوت يومهم إلى أن تخضرَّ الأرض وتطرح من جديد.

كانت الأيام تمضي والحال يضيق بهم، فاضطر صادق أن يعمل أجيرًا باليومية في مصنع الطوب بالقرية حتى يوفر قليلًا من المال يساعد في إعاشة البيت، ويدرّ ربحًا يعوِّض ما قد فات. عمل بالأرض في الصباح وبالمصنع في وردية المساء، سرق العمل طاقته فساءت حالته، ولكن الحاجة وضعت على عاتقه مسئولية أقوى من احتفاظه بصحته.

اختلى الرجل بزوجته ذات ليلة في غرفة الضيوف وأزالا غطاء إحدى الكنبتين الخشبيتين ليكشف عن الباب الخشبي لصندوقها الداخلي، ثم يفتحه باستخدام المفتاح المربوط بحبل في صدريَّة زوجته، أخرجا كيسا قماشيًّا وفتحاه ليُخرجا ما بداخله من نقود قليلة أمامهما على الأرض ويعدَّانها على الرغم من معرفتهما العدد مسبقًا. أخذا منها مبلغًا صغيرًا لزوم خدمة الأرض وعلف الماشية ثم أعادا العدَّ مرةً أخرى، قبل أن يُعيدا ما تبقَّى إلى الكيس ويربطانه بإحكام ويدفنانه داخل صندوقهما ويغلقانه بالقفل.

كان المال يقلُّ بلا حول لهم، وفترة الانتظار حتى يستعيد الكيس هيئته المنتفخة بدا أنها ستطول كثيرًا.

طرقات متتالية على باب دارهم أخبرتهم بوجود زائر مفاجئ، كان الحاج صابر الويشي، بعد أن جلس واستقرَّ في مجلسه وتناول مشروب الضيافة بادر محمدًا بقوله:

– جيرتك آذتني يا محمد.

كان محمد يعلم جيدًا أن احتراق أرضه آتى على جزء ليس يسيرًا من محصول الحاج صابر، وحاول تعويضه بتنظيف الأرض وتجهيزها مثلما

فعل بأرضه، ولكن يده كانت أقصر من تعويض خسارة الأرضين، فبالكاد يمتلك القليل من المال الذي ساعده في إزالة أثر الحريق.

– معاذ اللَّـه يا حاج صابر، ولكنه قدرُ اللَّـه.

قاطعه الرجل قائلًا:

– قدرُ اللَّـه يأتي بسبب، وسبب الحريق هو خلافك مع أنسابك ومع أخيك يا محمد.

– لكن يا حاج أنت تعلم ومعك البلد بأكملها أني لا أحمل لأحد شرًّا، بالعكس لقد تجنبت المواجهات والمشاكل.

صمت قليل أخذ مكانه بينهم، حتى قاطعهما صادق قائلًا:

– يا جدي، إن شاء اللَّـه لن تتكرر وسأعمل بأرضك دون مقابل حتى تنمو زرعتك وتحمل خيرها بين يديك. ولكن تكاليف البذور والسماد لا حيلةَ لنا بها.

تهكَّم الرجل بابتسامة حملت ملامح السخرية، وتوجه بحديثه إلى صادق:

– وأرض أبيك مَن يساعده في زرعها؟ ومتى ستعمل بأرضي قبل المصنع أم بعده؟ وما الضامن بأنها لن تتكرر يا صادق؟

صمت الجميع، فوقف الحاج صابر مُغادرًا قائلًا لهم قبل أن ينطلق مسرعًا إلى الخارج لينهي الحديث:

– حِلّ مشاكلك مع أهلك، أو اترك الأرض، ما بعد حرق الزرع جيرة يا محمد.

كانت الحياة تضيق بهم، بلا حيلة وكل السبل إلى السِّلْم ليست بين أيديهم، فماذا يمكن أن يفعل محمد محفوظ المصري ليحيا في سلام؟

لم يفتعل المشاكل مع زوجَيْ شقيقتيه ولم يبدأ العداوة مع أخيه، حتى ولده خضر هو من استباح حُرْمة بيته ونشر قصته وكلمات الغَزَل في ابنته في نواحي البلد.

منذ عودته من الحرب كان غريبًا بين أهله، منكسرًا رغم العودة منتصرًا، لا صديقًا ولا مؤنسًا ولم يقدم له أحد حق المساندة أو يفرد له جناح الرحمة من ذل الأيام فينكسر إلى جواره مستشيرًا.

تحمَّل تَبِعات الحرب، رحل عندما كان للجنيه قيمته، وعندما عاد كان لزامًا عليه أن يرضخ إلى كلمات السادات بينما يطلب من الناس أن تشد الحزام حتى تتعافى البلد، وأن يصدق وعوده بأن الخير قادم مع الانفتاح الاقتصادي، فصبر حتى ملَّ ولم يجد ما وعد به حقًّا.

كان ينظر إلى ولده وابنته وزوجته، فلا يستطيع الانحناء أمامهم يجب أن يظل شامخا، قويًّا، صُلبًا في وقفته أمامهم، ولكن حتى أعتى الرجال قوةً يريدون لحظات للضعف والانكسار، ولكنهم أبدًا لم يمتلكوها.

المصائب لا تأتي فُرادَى، والمتربصون أخذوا قرارهم بالإجهاز على محمد المصري حتى الموت كمدًا أو الحياة راضخًا منكسرًا.

استيقظ لصلاة الفجر كعادته، ولكن صوت الأذان صاحَبه صرخات من زوجته آتية من صوب الحظيرة.

هُرِع الجميع إليها وعلامات النوم ما زالت تكسو أعينهم، ولكن الضوء الباهر الآتي من تلك الفجوة المفتوحة في جدار الحظيرة الطيني أمامهم استطاع أن يعيد لهم تركيزهم كاملًا، كانت الحظيرة خالية، سُرقت البهيمة والغنمتان ومعها الدواجن، فقط حمامة وحيدة كانت ملقاة على الأرض وروحها مفارقتها، يبدو أنها أرادت الهرب، ولكن يد الظالم كانت أكثر قوةً فخنقها!

أمسكها محمد المصري، وخرج تاركًا زوجته جالسةً تهيل التراب على رأسها.

هامَ على وجهه في الشارع لا يدري أين ستأخذه قدماه، تحدث إلى الأشجار وإلى النيل بينما يعبر إلى جواره، طرح أسئلة بلا أجوبة، وأجاب على أسئلة لم يسألها.

وجد نفسه فجأةً على مصطبة أبيه، التي حفظ عليها آيات اللَّه، وكثيرًا ما صاحَب أباه الجلوس عليها بينما يفصل بين الناس في قضاياهم، أو يغدق على طلاب العلم من كنوزه التي علمه إياها الرحمن.

ظل جالسًا تحيط به السَّكِينة، حتى خرج صاحب الدار الجديد وتفاجأ بوجوده.

كانت هيئته تدلُّ على ما به، وأخباره يعلمها القاصي والداني فرحب به الرجل ولم يتحدث كثيرًا.

كانت أول الكلمات هي كلمات محمد المصري:

– اعذرني يا أبو منصور، ضاقت بي الدنيا وقادتني قدماي إلى هنا.

رحب به الرجل، وأخبره أن الدار داره، ودار أبيه، وصكوك الملكية لا يمكنها محو الذكريات من جدران المكان.

له في كل ركن ذكرى، وفي كل جدار علامة، هنا أسند ظهره ممسكا بالقلم والأوراق ليذاكر دروسه، وهنا أسند وجهه المختفي بين يديه ليلعب مع إبراهيم ومع البنات الاستغمَّاية، وعلى حافَّة ذلك الباب سالت الدماء من حاجبه عندما صدمه أثناء جريه وهروبه، خوفًا من فَلقَة أبيه الشيخ محفوظ عندما لم يحفظ سورة عبس.

هنا لم يكُن يحمل هموم الدنيا، ولم يُعادِ أحدًا ولم يهرب من مجهول يعاديه.

استحى من الرجل الجالس إلى جواره، فاعتذر له مُغادرًا.

قال له الرجل بينما يُحيِّيه أثناء الرحيل:

– يا أبا صادق، أنا عندي لك فكرة قد تنقذك قليلًا من أزماتك، ولكنها تحتاج إلى تفكير وقرار قوي.

توقف محمد ونظر له بعيون مستغيثة أن ينقذه بفكرته تلك، فواصلَ الرجل:

– لماذا لا ترسل صادق للعمل بالخليج مع ولدي منصور؟ عام أو اثنان وتشتري الأرض، وتدَّخر المال الذي يؤمِّن لكم مستقبلًا جيدًا، ثم يعود.

أصابت الرجلَ حالةٌ من الذهول، وردد مُتعجبًا:

– صادق؟ يتركني ويترك أمه وأخته ويتغرب بعيدًا عنا؟

– لا تتعجب، ولا تأخذ قرارًا الآن، أنا أيضًا كنت مثلك، ولكن بعد تفكير حسمت أمري، انظر حولك، نصف شباب البلد هربوا إلى فرنسا وإيطاليا، والبيوت المبنية بالطوب الأحمر ظهرت وأصبحت بيوتنا الطينية مهددة.

صمت فوَاصلَ الرجل حديثه:

– عام أو عامان ويعود بالمال، صدقني لم يَعُد للغلبانين حيلة سوى ذلك، كل البلد الآن أصحابُ أراضٍ وأطيان ونحن فقط من نعمل بالإيجار.

– ولكن السفر يحتاج إلى مصاريف أيضًا، وتجهيزات، وهناك الكثير من الأمور أكبر من استطاعتنا في الوقت الحالي.

– العراق لا تحتاج سوى إلى جواز سفر وتذكرة وصادق غير مطلوب في التجنيد، تتدبر يا محمد، خير والدك الحاج محفوظ علينا وعلى ولادنا، فكِّر وشاور أهل بيتك، و– إن شاء اللَّه – لنا جلسة أخرى نتحدث عن كل شيء.

طوال الطريق إلى داره لم يتوقف عن التفكير، كلمات كثيرة ترددت في رأسه، علَّمه أبوه ذات يوم أن الإمام عليّ –كرَّم اللَّه وجهه– قال: "الفقر في الوطن غربة... والغِنَى في الغربة وطن"، وهل هناك غربة أكثر من غربتهم بين أهلهم وناسهم؟

عندما تحدث مع أهل بيته بكت زينب، وتركتهم يواصلون حديثهم

وخرجت، بينما عزيزة ظلت واقفة صلبة مثل التمثال، بينما رفع صادق رأسه قائلًا لأبيه:

– وما المانع يا أبي، ألم يَقُل اللَّـه – عَزَّ وجَلَّ – ﴿فَامْشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِ﴾، أليست الغربة أفضل من الاستمرار في الفقر حتى يقتلنا العوز خجلًا.

أخذ صادق وذهبا إلى دار جده القديمة، قابلا سليم أبو منصور، وتحدث الرجل معهما عن كل شيء، وخطط لهما ودبر، لم يكن منصور غريبًا على صادق فقد لعبا معًا عندما كانا صغارًا، والتحقا بالكُتَّاب معًا، ولكن صادق أكمل ومنصور توقف.

أعدَّ صادق عُدَّته، ورتب أوراقه، انتظرته السيارة التي ستأخذه إلى المطار على أول البلدة. لم تصحبهم عزيزة، وسارت معه أمه بدموعها وأبوه مُستندٌ عليه يوصيه ويلقنه النصائح طوال الطريق.

احتضنهما بقوة، احتضنهما كمُغادِر بلا عودة، نظر إلى المارَّة يتوسل نظرات الوداع من الجميع. كان يودعهم ويتمنى أن يتمسك به أحدهم، كان يريد أن ينحني لينتشي برحيق تراب بلدته، لكن الوقت لم يُمهله، نظراته عبر نافذة السيارة الخلفية بينما تبتعد حفزت دموعه على مغادرة مقلتيه. كثيرًا ما رأى ذلك المشهد على شاشة التلفزيون في أحد الأفلام الرومانسية بالمقهى، ولكنه لم يعرف معنى شجن الرحيل إلا عندما جرَّبه. مسح دموعه المنسابة قبل أن يراها أحدٌ من الركاب، ثم نظر لمن يجاوره منهم وابتسم بصمتٍ مُواصلًا الرحيل.

***

(الرَّحِيل)

هي الحرب تُغيِّر الأقدار، تشكِّل مُدنًا وتمحو غيرها، تتلاعب بالنسيج المكوِّن للبلدان، وتعيد تكوينه كما تشاء، انتصار أكتوبر بدَّل الحال داخل القرى والنجوع المصرية، خرجت مصر من الحرب منتصرة، ولكنها خسرت الكثير من أبنائها ممن تركوها عندما لم يتحملوا ضيق الحزام على بطونهم الجوعى، وعندما لم يستطع الأجر أو اليومية أن تفي بمأكلهم واحتياجاتهم الأساسية والضرورية، رحلوا.

كانت هناك على ضفاف النهر الآخر حرب أخرى ما زالت دائرة، أخذت الرجال حتى صارت المدينة خاليةً من سواعد رجالها، ففتحها صدَّام حسين للمصريين ليندفعوا من كل صوبٍ إليها بلا تأشيرة ولا أختام للدخول أو العمل، أكرمهم من أجل القومية العربية التي نادى بها عبد الناصر، وحفظوها.

عجيبٌ أمر بغداد، وكأن دجلة والنيل يسريان في مجرى واحد إذا جفَّ أحدهما يملؤه الآخَر، أو أن رُفات جنود العراق التي احتضنتها رمال سيناء

ألقت بثَرَاها إلى النيل، فاختلطت جينات دجلة بما يمنح المصريين الحياة.

يحمل التاريخ المئات من المواقف التي تربط البلدين، ولكن هجرة المصريين إلى العراق مع بدء حرب الخليج الأولى سيظل من أكبر الروابط التي جمعت النسيجين ليصبحا كيانًا واحدًا.

غزا المصريون شوارع بغداد حتى تحول الكثير من أحيائها إلى أراضٍ مصرية، يسكنها المصريون ويعملون ويعيشون ويأكلون مثلهم مثل أهل العراق لا فارق. صدرت القوانين لتمنح المصريين حصانة ربما لم يجدها أهل العراق، وكانت صور صدام حسين تملأ غرف العمال المصريين وأماكن تجمُّعاتهم.

لم يجد صادق المصري صعوبة في اللحاق بصديقه منصور، على مصطبة جده اتفق أبوه مع أبي صديقه أن يقترض منه المبلغ اللازم لسفر ابنه، وأكرمه منصور بحجز تذاكر للطيران بدلًا من المعاناة داخل الحافلات من القاهرة لبغداد مرورًا بالأردن. العمل بالعراق كان متوافرًا وبكثرة فلم يُعانِ منصور في البحث، وصادق كان قويًّا وخَلُوقًا استطاع الانسجام والاندماج داخل النسيج العراقي، ولكن ما لم يَعتَدْ عليه هو أضواء المدينة، سحقته الأزقَّة ببيوتها الخرسانية وغلبته الشوارع الإسفلتية بزحامها وضوضائها. كان يهرب كثيرًا إلى ضفاف دجلة يتخيله النيل ولكنه افتقد رحيق الخضرة وظلال أشجار الصَّفْصاف ورائحة الطين، كان يشتاق إلى السير على الأرض الطينية، أزعجته الشوارع ذات الأرضيات الصلبة وقست على قدميه.

ولكنها الغربة، ولكنه الطريق الذي اختاره ولن يستطيع التوقف أو العودة بعد أن اجتاز نصف المسافة.

يعلم أنه في منتصف الطريق يختلف كل شيء، نظل نبحث عن شعاع ضوء يهدينا إلى الصواب حتى ولو لاح لنا كسراب بعيد، نتحسَّس الطريق إليه يدفعنا أمل لا نعلم هل هو كاذب أم صادق، ولكننا لا نمتلك رفاهية الوقوف للتفكير فيما قد نواجه أثناء رحلتنا، نُعجِّل بالوصول لنكتشف مصيرنا هناك فلا فارق في المواجهة.

الاستسلام يعني الموت في الظلام دون أن يراك أو يشعر بك أحد، وليس هناك أقسى من أن تعيش مُتخبطًا ثم تموت وحيدًا، واليأس هو أن تضيع المجهود الذي عانيته لتصل إلى تلك النقطة فتلقى نفس مصير المستسلم، والنجاة لن تعرفها إلا بعد أن تحققها مهما تعددت قبلها محاولاتك أو صاحَبها الفشل.

الفصل الثاني

يا شِـراعًا وَراءَ دِجـلَةَ يَجــري في دُموعـي تَـجَنَّبَـتكَ العَـوادي

الشاعر المصري: أحمد شوقي عن العراق

إذا العـروبــةُ حـلَّت عــرشَ دولتــها

فمصـرُ تــاجٌ لهـا قـد صِيغَ من ذهبِ

من أُفقِ فسطاطها في الشرقِ قد طلَعتْ

شمسٌ إذا غابَ قرصُ الشمسِ لم تَغِب

الشاعر العراقي: معروف الرصافي عن مصر

(غُـرْبَـة)

تقسو الحياة فيُنعم اللَّـه على عباده بنعمة النسيان حتى يكملوها، ولكن قسوة أول ليالي الغربة لا يمكن نسيانها، من جربها لن يستطيع تجاوزها أو النسيان، ميلادًا جديدًا وبداية حياة فُرضت عليه عندما وجد نفسه فجأةً في وسطها يعيش بين أشخاص لا يألفهم ولا يعرفونه، يختلفون عنه في كل شيء طباعًا وسمات، بينهم أحاديث جانبية وحكايات مشتركة لم يكُن جزء منها عن أحداث وأماكن لم يسمع بها من قبل.

انزوى على ركن بسريره فور تسلُّمه منهم، جالسًا ذات الجلسة التي اعتاد عليها أرضًا ولم يخلع ثيابه أو يفتح حقيبته لإخراج ملابسه التي تختلف عمَّا يرتدون، على الرغم من تماثل لهجتهم التي أوحت إليه أنهم ربما من قرية مجاورة لقريته، خجل من التعرِّي أمام أولئك الغرباء كما خجل من الحديث أمامهم. ولكن منصور الذي ما زال جالسًا ولم يغادر حاول أن يسحبه للكلام معهم بفتح حقيبته وإخراج ما بها من طعام.

عرف معنى الغُرْبة مبكرًا عندما لم يأمن للنوم على سريره بينما انحصر كل تفكيره في كيف لذاك السرير الذي أصبح مقرَّه وعنوانَه في تلك البلاد الغريبة أن يمنحه الأمان، بينما لا يستطيع أن يغفو عليه أو يترك جسده بينهم بينما يسلبه النوم وعيه، فانتظرهم حتى استلقوا نائمين كُلٌّ على سريره ثم استلقى مثلهم محاولًا، ولكن باءت المحاولات بالفشل.

في الصباح مرَّ عليه منصور واصطحبه إلى مقرِّ العمل، طوال الطريق كان يشرح له ويخبره بأسماء الشوارع ويخبره كيف استطاع أن يجد له ذلك العمل بالمقهى في وسط بغداد، رغم كثرة المُتعطِّلين من المصريين الذين سبقوه بالسفر، وتعبه بالبحث تنفيذًا لوصيَّة أبيه الحاج سليم.

يتلفَّت حوله كثيرًا لا يستطيع أن يخفي انبهاره بالمدينة وشوارعها ومبانيها العالية ومساجدها ذات المآذن الشاهقة الارتفاع والسيارات الكثيرة والناس والزحام.

في المقهى كانت دنياه الجديدة التي لم يحبَّها، أبت كرامتُه أن يستبدل بالفأس خدمةَ الناس، وطغى الفلاح بداخله على هيئته وحديثه واستجابته للأوامر، فشل في خلق أُلْفة بينه وبين المكان وضجر من سخرية الزبائن الدائمة منه بسبب لهجته وجلبابه وعدم فهمه لطلباتهم فكثرت مشاكله مع صاحب المقهى. قضى معظم ساعات عمله في التنصُّت إلى الأحاديث الدائرة حوله بين الجالسين، وحاول في كثيرٍ من الأحيان التدخل بأسئلته حتى يفهم ما يحدث حوله في البلد، فضوله دفعه لإلقاء الكثير من الأسئلة عن الحرب وعن رأي مَنْ حوله بها، رغم محاولات صاحب المقهى المتكررة

لنصحه بالابتعاد عن الحديث في السياسة أو التدخل في الأحاديث الدائرة حوله، انتهت تلك الحكاية بطرده من المقهى بعد أن اجتمع الزبائن وتحدثوا مع صاحبها للتأكُّد إنه ليس جاسوسًا يعمل لصالح حكومة صدَّام كما اعتادوا من بعض المصريين بالتحديد. كان ذلك عندما استمع إلى أحدهم يتحدث بهمسٍ إلى زميله معترضًا على زيادة أعداد المصريين، مؤكِّدًا له إن المصريين المحميين من نظام صدَّام ما هم إلا خرِّيجو السجون الذين أطلقهم السادات حتى يتخلص من أعدادهم ومطالبهم داخل مصر. أخذته الحمية وردَّ عليه لائمًا بأنه لم يكُن مسجونًا وأنه فلاح ابن فلاح، ودارت المعركة اللفظية فانتهت بطرده من المقهى.

لم يتحمله أصدقاؤه في السكن أخبروه أن لا مكان لمن لا يدفع وعليه مساعدة نفسه بنفسه، وتهرب منصور من مقابلته فخرج وحيد إلى الشارع، واتخذ من مقعد بجوار دجلة مأوى، يبحث عمَّن يحتاج مساعدة من العجائز ليمنحه أحدهم ما يسد به جوعه. فكَّر في العودة معترفًا بفشله في الحياة خارج قريته، ولكن ماذا سيقول لأهله وجيرانه؟ وكيف سينظرون له كفاشل منقوصة رجولته عندما لم يتحمل الغربة كمَنْ سبقوه وأصبحوا أصحاب أطيان وبيوت من الطوب الأحمر! بحث كثيرًا عن عمل حتى أخذته قدماه إلى شارع المتنبِّي ووقف معجبًا بالكتب الملقاة على الأرصفة أمامه، أخذه عشقه للكتب ورائحتها إلى هناك وقضى أيامًا كثيرة يحاول العمل باليومية في مطعم أو حمل الأغراض بين الأسواق، ليعود للنوم على مقعده أو بداخل أحد المساجد الكبيرة الموجودة بين الشارعين. قادته الصدفة للاستماع إلى سؤال رجل يبحث عن كتاب معين بأحد الأكشاك

ولم يجده، فأخذه إلى حيث رأى الكتاب بأحد الأكشاك الأخرى وجلبه له من بين الكتب، شارحًا ما به وكيف يمكنه أن يجد ضالَّته بين صفحاته وسط نظرات الاستغراب من صاحب الكشك، منحه الرجل مبلغًا صغيرًا نظير خدمته ولكن صاحب الكشك استوقفه ليعرض عليه العمل معه من جديد. قاده القدَر ليعمل ما يحب، وساعده صاحب الكُشْك في العودة من جديد للسكن بعد أن دفع إيجار سريره وتجهيزه، تغيرت حياته مع العمل الجديد خلع جلبابه خارج غرفته مرتديًا قميصًا وبنطلونًا مُحاولًا الاندماج وسط المكان الذي سيمكث به لفترةٍ تمنَّاها أن تكون أطول من سابقتها بالمقهى، وقضى أيامه في القراءة التي أحبَّها قديمًا في سكون النيل، واعتادها الآن وسط ضجيج المارَّة وأحاديثهم التي كان كثيرًا ما يترك ما يقرأ للإنصات إليها. اعتاد أن يُحصي الأيام يومًا بعد يوم منتظرًا يوم عودته إلى مصر ولو بإجازة قصيرة، اعتاد تكرار الأيام، ولكنه أبدًا لم يَعتَدْ غربته.

(رسائل ما قبل أول عودة)

أكتوبر – 1986
بغداد – العراق
مرسل إلى: (ونس النيل/ دقهلية)
يُسلم ليد/ محمد محفوظ المصري
بمنزله الكائن بنواحي البحر – شارع القصر

والدي العزيز الغالي/

أهديك أطيب التحيات والسلام.

أما بعد،

عامان مضيا يا أبي بعيدًا عنكم، عامان مضيا أحصيت أيامهما ولياليهما وشروقهما وغروبهما، قاسيةٌ هي الغربة يا أبي، ولكن اليوم فقط لم أعُدْ أشعر بقسوتها، توارت سوأتها بينما أمنح موظف التحويلات آخر دفعة من ثمن الأرض، اليوم فقط شعرت أن ما مضى لم يضِع هباء.

باقٍ من الزمن أربعون يومًا وعشرون ساعة حتى موعد إجازتي، سأعود إليكم لأمضي شهرين في حضن أمي، أتنفس رحيقها الذي أفتقده، بدأت من الآن أرتب ماذا سأفعل في أيام الإجازة وساعاتها، سأزور كل شبر في بلدنا، ولكن ساعاتي الأطول سأقضيها في أرضنا، كَمْ هو جميلٌ أن يكون لنا أرض أغرس أقدامي في طينها فلا تستطيع أي قوة على الأرض أن تخلعني منها!

سأجلس معك يا أبي لنتسامر كما كنَّا نفعل عند عودتك من الحرب، وسأحكي لك عن بغداد، عن عامين قضيتهما وحيدًا على الرغم من سكني مع خمسة أشخاص. سأحكي لك يا أبي عن أيام مرَّت كاد المرض أن يُهلكني فلم أجد يدًا حانية تُربِّت على كتفي. عن قسوة الأيام عندما ينفد منك المال ولا تجد قوت يومك فتربط على بطنك بحزامك محاولًا التخلص من ألم الجوع لتقف على قدميك وتبحث عن حقيبة تحملها أو مشوار تقضيه لمُسِنّ ليمنحك ما تستطيع أن تكمل به أيامك حتى موعد الراتب الجديد. لا تخبر أمي بما أقوله هنا ولا تقرأ لها، فأنا أُسِرُّ إليك بمعاناتي حتى تفخر بي في نفسك، ويزداد إيمانك بأنك استطعت أن تربي رجلًا يمكنك الاعتماد عليه، إذا كنت قد تركتنا وذهبت إلى آخر الدنيا لاستعادة الأرض فها أنا يا أبي ألهمتني مسيرتك، وسافرت حتى تترسخ الأرض تحت أقدامنا فننتشي بعبقها.

أخبرني يا أبي عن أمي، هل لا زلت تصنع الخبز فتنتشر رائحته الطيبة لتغمر أرجاء الدار؟، وذَكَر البَطّ الذي كانت تهتم به حتى نغار منه ومن أكله؟

أخبرني عن عزيزة، كيف أصبحت؟ ازدادت جمالًا أليس كذلك؟ بالتأكيد كثُر خُطَّابها وطالبوها للزواج، هل ما زال خضر يطاردها؟

أخبرني عن خضر يا أبي؟ ولا تغضب لسؤالي عنه، فأنت تعلم أني لم أجد لي أخًا سواه ولا صديقًا غيره.

وعمي إبراهيم، وجدِّي صابر، وأم حسن، ورجال المسجد.

أخبرني يا أبي عن قريتنا، وعن طينها ونسيم البحر العليل، اللعنة على الأوراق التي لا تستطيع حمل العطور لتحرمني من الانتشاء بنسمات النيل محملة برائحة الزرع والطين على ضفافه، اللعنة على الأوراق التي لا تستطيع حمل الأصوات لتُعجزك عن إرسال أصوات الطيور تلهو على صفحة الماء، فتصنع تموُّجات المياه مع حفيف الأشجار نغمات موسيقية لا تستطيع صنعها أغلى آلات العزف.

اشتقتُ إلى مصر، كنتُ أتعجَّب ممَّن يقولون إن من يشرب من النيل سيعود، ومن يعود سيُقبِّل أرضها بمجرد وصوله، أنا أشتاق الآن لملامسة جبهتي لأرضها، قاسية هي مصر، ولكني أعشقها وأذوب بها حتى النخاع.

أُرسل أشواقي وقبلاتي إليك وإلى أمي وأختي يا أبي، أخبرهما وأخبر جدران دارنا، أخبر طين أرضنا بأني قادم.

والسلام ختام

ولدك المخلص/ صادق المصري

***

نوفمبر – 1986
قرية (ونس النيل/ دقهلية)
يسلم ليد/ صادق محمد المصري
بمقر عمله – العراق – بغداد – شارع المتنبي – مكتبة الفرات

ولدي العزيز الغائب/ صادق

أنبأتْنِي الأرض بقدومك يا ولدي، ونحن ننتظرك على أحَرِّ من الجمر، الأخبار من مصر لا تسرُّ عَدوًّا ولا حبيبًا، واعذرني لصراحتي، ولكنك آتٍ وأنا لا أريد لك الصدمة.

تُوفِّي جدك صابر الويشي منذ أيام، وأنا لا أعلم حتى الآن مصير العقد ولا الأرض.

غاب الرجل عن المسجد ثلاثة أيام، فاستوحش الرجال غيابه، وفي اليوم الرابع ذهبوا إلى داره وطرقوا الباب مرارًا دون جدوى فظنَّنا أنه ربما ذهب لزيارة أحد أقاربه بالمركز، وبعد يومين فاحت الرائحة فكسرنا باب داره ووجدناه طريح الأرض بجوار سرير زوجته المُتوفَّاة إلى جواره.

أي لحظات مرت عليهما يا ولدي ومن منهما سبق الآخر لا ندري،

يقول الرجال ممن سبقونا لدخول الغرفة إنه هو من تُوفِّي أولًا، كان ساجدًا، وتُوفِّيت زوجته بجواره بلا حول لها ولا قوة.

هل تعلم يا صادق، لم يمرَّ سوى يومين على وفاته حتى جاءتنا سيارتان ارتبنا من فخامتها ومن هيئة مُستقلِّيها، يرتدون بذلاتٍ وأربطة عنق ونظارات سوداء تشبه تلك التي يرتديها رجال الأعمال والمسئولون.

لم نَرَهم في القرية من قبل، وأعتقد أننا لن نراهم لاحقًا يا ولدي، هم الورثة، هم الأهل الذين اختبئوا خلف أغطية الخجل من الانتساب إلى القرية والتباهي بالمدنية، فلم يودوا الرجل ولم يراعوه في هرمه حتى وافته المَنيَّة وحيدًا فلم يجد من يُكرم جثمانه.

تسألني عن مصير الأرض أنا لا أعلم، ولا أعلم شيئًا عن مصير ما دفعنا، ذهبتُ إلى عمك عادل الشومري المحامي وأعطيته الأوراق ولم أتلقَّ ردًّا منه حتى الآن.

بالتأكيد سيبيعون الأرض، ولكن هل سيقسمونها؟ هل سيلتزمون بوعد الرجل لنا؟ أنا لا أعلم. والحمد للَّه أنك قادم قريبًا حتى نرى ما يمكننا فعله.

تسألني عن عمك إبراهيم وولده خضر ولا أعلم ماذا أخبرك، زادت مطاردات خضر لأختك يا ولدي حتى خفَّ عقله، أتعجب هل من الممكن أن يفعل به الحب ذلك، أصبح مَوْتورًا لا يعي ما يفعل ولا ما يقول، هائمًا على وجهه حتى إنَّه لم يعُد يتحدث عن عزيزة، ارتحنا منه ولكن حالته تثير الشفقة، أخذه أبوه وسعى بين المشايخ يطلب منهم العفو عن ولده،

زار الحسين والطاهرة حفيدة النبي، ذهب إلى كفر الشيخ وابتهل عند قبر سيدي إبراهيم الدسوقي في ذكرى مولده. قال لي بعض الرجال إنه ذهب قبلي لضريح أبي الحجاج الأقصري ثم شدَّ رحاله إلى بحري حتى وصل للمرسي أبو العباس، أقسم لي أحدهم أنه ذبح سبع بقرات عند ضريح السيد البدوي في طنطا ورآه الآخر نائمًا بولده بجوار ضريح سيدي الرفاعي في القاهرة، ولا أعلم هل ينتقم منه اللَّـه فيما فعل بي فيريه العذاب متمثلًا في جنون ولده؟ كنت أحب خضر مثلما أحببتُك، ومنذ مولد عزيزة عندما كنَّا في دار جدك ونحن نرسخ الفكرة فخضر لعزيزة، حتى حدث ما حدث، أنا أدعو له واللَّـه يعلم ما أجهر وما أُخفي، ولكن عمك يستحق، بسببه فرَّقني اللَّـه عنك وبسبب ابنتي فقد ولده.

دعك مما سبق يا ولدي، واتركنا في فرحة عودتك، أمك تخبرك أن البط والوز والحمام جاهزون من أجل ولائم عودتك. تقول لك إنها تعلم بما فقدت من وزنك وتشعر بك، لذا فستقضي الشهرين تضع الأكل في فمك بدلًا من ذَكَر البَطّ الذي كنت تغار منه، وأختك كل يوم منذ استقبلنا خطابك تفتح شباك غرفتك وتعيد ترتيبها وتمسح التراب وتضع فرشًا جديدًا، في كل ليلة تقول لي إنها تشعر أنك ستأتي غدًا، وأنا أضحك على سذاجتها، عزيزة تفتقدك يا ولدي، ولو أراد اللَّـه خيرًا لها نزوجها في إجازتك، لنأمن عليها في كنف رجل يحميها من غدر الأيام، ولكني أصبحت أخشى أن نلقى مصير جدك صابر، بعد أن تتزوج عزيزة ونظل أنا وأمك وحدنا بالدار.

لا أعلم متى ستنتهي غربتك ومتى ستعود يا صادق، سنجلس معًا لتحكي لي كما اعتدنا، ولن أتركك تذهب وحيدًا إلى خلوتك على شجرة

الجميز العجوز، فأنا انتظرتك عامين أحصيتهما مثلك، وكأن الكون ظلام دائم، فلتأتِ بالشمس معك يا صادق.

والسلام ختام

والدك/ محمد محفوظ المصري

***

صادق

لم يكن الطقس باردًا، ولكن برودة كلمات أبي هي ما مست قلبي فأصابتني برعشات متتالية، حاولت التغلب عليها بضمِّ يدَيَّ إلى صدري لأشعر بالدفء، في مشهد غريب على المارَّة الهاربين من القيظ بالتمشِّي على ضفاف دجلة، ولكن خابت محاولاتي.

لم أحتَجْ لإعادة قراءة رسالته الأخيرة، كنت قد حفظتها عن ظهر قلب وحفظت كل ما جاء بها ورددتها مرارًا داخل عقلي الذي حاول إنكارها، كمحاولة للَّهروب من التفكير في المصير الذي سأجده ينتظرني في القرية عند عودتي إذا تحققت التنبُّؤات التي رسمها خيالي أثناء القراءة.

عامان في تلك البلاد الغريبة قضيتُهما كشخص مختلف كنتُ أعيش فيها برداءين كشخصين مختلفين، أحدهما ينكرني والآخر أحاول نكرانه والهروب منه، فلا أجد مأوى غير دفن رأسي في الجدار الملاصق لسريري.

"اجمـع الأموال يا ولـدي وعُدْ سريعًا" كلمات ظلت تـتردد في أُذُنَي

شـخصيتي الحقيقية وأحاول جاهدًا أن أشاركها مع صادق الذي يرتدي القميص ولا يستطيع إحكام أزراره، وسنوات الغربة تسرق العمر وتُعدد الأهداف من مبلغ صغير لمبلغ أكبر، ومن أرض لأرض وبيت، ثم أرض وبيت وزوجة، فكيف سأعود سريعًا؟! وها أنا في طريقي لاكتشاف ضياع أول الأهداف، كل ما فعلت قد يضيع هباءً إذا لم نحصل على الأرض بينما القدَر لم يُمهل جدي صابر الوقت الكافي لتوثيق العقد، لماذا عاش صابرًا ولم يصبر حتى يفي بوعده لنا ويُرضينا ويكمل معنا المشوار؟

أهرب من التفكير في مصير المال والأرض فتلاحقني عينا خضر الصغير، أراه واقفًا يمسك بقطع الحلوى يوشك على تقسيمها بيننا فيسألني عن عزيزة لمنحها نصيبها، ولكني كنت أدرك أن رؤيتها ألذ له من مئات قطع الحلوى.

كانت تقف على مقربة منَّا وكنتُ أتجاهل النظر إلى مكان اختبائها بينما يتباهى هو بصوتٍ عالٍ حتى تسمعه، ليخبرها كيف حصل على الحلوى من شيخ المسجد عندما قرأ أمامه سورة القلم، هل كنت أنانيًّا حينما منعته من اللعب معي في الدار وحرمته من رؤيتها ومغازلتها؟ هل سيلاحقني ذنبه فأشارك والدي مسئولية ما آل إليه من مصير؟ ربما لأنني لم أعرف طعم الحب كنت قاسيًا، وربما لأن كل علاقاتي بالجنس الآخر تمثَّلت في أختي عزيزة فأصابتني وحدتي بالغيرة من أي شخص يحاول الاقتراب منها.

أنظر إلى السماء وألعن الغربة ألف مرة فأرى السُّحُب وقد كوَّنت صورة عزيزة ضاحكةً تنتظرني على باب دارنا.

مللتُ الجلوس فأخذتني قدماي إلى مسجد الصياغ، توضأت وصليت

ركعتين إلى اللّـه ألحقتهما بتلاوة سورة يس، عَلَّ اللّـهَ يقضي حاجاتي ويستجيب إلى أدعيتي التي لم يخذلني بعدها قط منذ حفظتها عن لسان جدي الشيخ محفوظ.

كانت فترة راحة الظهيرة قد انقضت، لم أستغلَّها في تناول الطعام كما اعتدتُ كل يوم، لم أشعر بالجوع فالقلق يخفي خلفه كل المشاعر والاحتياجات الجسدية، فلا يبقى سوى ألم التفكير يضرب الرأس من الخلف فيجبرني دومًا على النظر لأسفل.

عدتُ إلى كُشْك الكتب حيث أعمل بشارع المتنبي ولم أشعر بالوقت يمضي ولم أشعر بأي شيء مما دار حولي. كانت أطيافٌ كثيرةٌ تطاردني على أغلفة الكتب المرصوصة أمامي على الرصيف، أنسج من عناوينها جُملًا ترادف اليأس، يزداد ألم رأسي فأحنيه للأسفل ولا أرى سوى موضع أقدامي.

نداءات متتالية من أستاذي صاحب كشك الكتب أخرجتني من حالتي، كان ينبهني أن الوقت قد مضى ويجب أن أبدأ في إدخال الكتب وإغلاق المكان، لاحظ حالتي فسألني:

– ما الذي غيَّر حالك يا صادق؟ منذ أسبوع فقط كنت سعيدًا وتحصي الأيام لعودتك إلى بلادك.

لم أدْرِ بماذا أجيب، لم أَكُن شكَّاءْ ولم أعْتَد إقحام أحد في مشاكلي، حتى مع وحدتي القاسية بالغربة والتي سلبت مني معاني الكلام والحديث الصافي، ابتسمتُ له مُحاولًا إخفاء ما أمرُّ به وأخبرته أنها مجرد مشاكل الحياة العادية.

فهم الرجل دون أن ينخرط معي في حديث طويل، كان يعلم أن مشاكل المغتربين يمكن حل أكثرها بالمال، فالمال هو الذي جعلهم يتركون بلدانهم وأهلهم وأصدقاءهم ويسافرون إلى آخر العالم، كان أكثر ما يُؤرِّقني أن يظن أني أحاول التصنُّع حتى أخدعه أو حتى أستدرَّ عطفه فيعطيني مالًا لا أستحقه.

جاءني مبتسمًا، ثم رَبَّت على كتفي قائلًا:

– يا صادق، عهدتك صادقًا وأمينًا، ولك عندي مكافأة جيدة على إخلاصك بالعمل طوال العامين السابقين، على أن تعدَني بالعودة مرة أخرى.

في ذلك الوقت، كان من عادات أصحاب العمل في بلاد الخليج أن يمسك على العامل جزءًا ليس بسيطًا من مستحقاته فإن عاد سددها له، وإن لم يَعُد كان يعدُّها تعويضًا عن تركه للعمل دون إذن، وحجزه لموقعه دون منح صاحب العمل الفرصة للبحث عن عامل جديد.

ولكن الرجل لم يفعل ذلك معي، نفحني مبلغًا كبيرًا قبل السفر، حاولت به تحقيق جزء ليس هيِّنًا من أحلام أبي.

قضيتُ يومًا كاملًا بسوق دانيال أشتري لأبي أفخم أثواب الصوف الإنجليزي، ليصنع منها ما يريد من الجلاليب القيِّمة والتي لا يستطيع امتلاكها في القرية إلا كل ذي شأن. ومن سوق العباجية اخترت عباءةً من وبر الجمال أخذت وحدها ما يزيد على ثلث المال الذي أمتلكه، ولكنه أبي يجب أن يظهر بين أهل القرية مختلفًا، يجب أن يعلم الجميع أن الحياة قبل سفري اختلفت عمَّا بعدها، يجب أن ينعم أبي بما حرمَتْه منه الأيام،

وليس أبي وحده، أمي وعزيزة أيضًا سينالهما من الحب جوانب. صليتُ العصر بمسجد الصيَّاغ لأكون قريبًا من الصاغة، ثم ابتعت لعزيزة خلخالًا من الذهب لتزين به قدمها الجميلة، لم أنس يا عزيزة يوم أن لعبنا بالحقل عندما أخذتِ شريطًا ذهبيًّا طويلًا من أعواد القمح وضَعْتِه حول قدمك رأيت الفرحة في عينيك، ويومها أخبرتك أن قدماكِ هما ما تزينان الخلخال، وأنا أريد أن أرى تلك الفرحة عندما ترتدينه من الذهب الحقيقي. أما أمي فلن أبخل عليها بكل ما تبقَّى من مال، عانت وتعبت من أجلنا وأفنت جمالها وشبابها في العمل، لذا سأُنعِّمُها بما أستطيع حمله من الحرير، ولأنها كانت طاهية ماهرة ولأنني اشتقت إلى طعامها، ابتعت لها الكثير من بهارات الطعام الآتية من بلاد الهند والشام.

لا أدري هل اشتريتُ كل تلك الهدايا من أجلهم أم من أجل إشباع رغبتي في رؤية فرحتهم حتى أشعر أن سنوات الغربة لم تَضِعْ هباء، ربما هي نزوة أو نوع إضافي من الشهوات يصيب المغتربين فلا يُشبعهم سوى نظرات الفرحة التي تصنعها الحقائب المفتوحة فور الوصول، وماذا سأشتري بثمن سنوات الغربة أجمل من فرحة العيون؟!

كنت أحب جلسة المقاهي، أهرب بها من أزمة الوحدة عندما أشعر أنني وسط مجموعة تنتمي إلى المكان ذاته، جربت الكثير من المقاهي فلم أجد ذاتي سوى على مقهى الخفاقين، ربما لوقوعه في منتصف السوق، يضم دومًا مختلف أنواع البشر من كل صنف ولون، أسترِقُ السمع لحواديت وحكايات مختلفة، كنت أشعر معها أني أملك الكثير من المعرفة لبواطن

الأمور تزيدني خبرةً بخبايا بغداد. أخذت استراحتي المعتادة على المقهى حتى قابلني منصور، هو كثير الكلام وأنا اعتدت السماع له، أختلف عنه في الكثير من الأمور منذ كنَّا أصدقاء بالقرية كان يختار كل شيء عكس اختياري، لا أدري هل كان يقصد ذلك أم أنها محض صدفة. عندما كنا نلعب عسكر وحرامية كنَّا نختلف، وعندما عملت بالأرض ذهب إلى المدرسة وعندما ذهبت إلى المدرسة تسرب منها ثم عاد إليها بعد هروبي، حتى عندما جمعنا كتاب جدي كان يحفظ قصار السور إذا بدأت حفظي من يمين المصحف، في السكن اخترتُ أنا السرير الأيمن فاختار هو الأيسر، فكان بسبب اتجاه الباب في عكس اتجاه سريري لينعكس رأسانا، ولكن لحُسْن حظي لم يكُن رأسي أنا تجاه الباب فلم تضايقني حركة الدخول والخروج من الغرفة الصغيرة.

أخفيتُ ما اشتريتُ تحت الكرسي فأصرَّ على رؤية غنيمتي، أخرجتُها على مضض وأخذ يفردها ويقلبها وعيوني تتابع الجالسين على المقهى، أريد أن أعرف من منهم مثلي يسترِقُ السمع لحكايتي.

انتهى منصور من الفرز ثم باغتني بسؤاله:

– ألا تريد تلفزيونًا أو راديو أو مروحة؟

ابتسمت له قائلًا:

– ومن أين لي بثمن كل هذا؟ تلك الأشياء لا يقدر عليها سوى الأكابر والعاملين هنا في كنف الحكومة، نحن مجرد عمال على باب اللَّـه.

سحبني من يدي قائلًا بتهكُّم:

– عامان يا رجل ولم تتعلم شيئًا هنا، ولا زلت لا تعلم عن الأسواق إلا ما داسته قدماك.

سرتُ معه حتى عبرنا باب جامع القبلانية، كنت أعلم أنه يأخذني باتجاه سوق هرج القديم، استوقفته لائمًا كيف يريدني أن أشتري من مسروقات؟

كانت سُمعة السوق معروفة من قديم الأزل، ولكن تكاثرت الأقاويل والمبررات لمن يريد الشراء بأنه سوق للأجهزة المستعملة على الرغم من أنها لم تُستعمل قط ومعظمها لا يزال بتغليفه، والغريب أن السوق كان أمام أعين الحكومة، يشبه أسواق الجمعة والاثنين في مصر، ولكني اعتدتُ أن أتقي شر الشُّبُهات فتركتُه وعدتُ إلى السكن.

رفضت منطق منصور وما حاول إقناعي به، فما كان منه إلا أن اشترى الأجهزة وأبى أن يأخذ ثمنها.

كانت أخبار القرية قد وصلت إليهم عن طريق خطابات أبيه، فكانت لديه معرفة بما ينتظرني، لذا فقد أبلغ رفقاء السكن وجمعوا مبلغًا ماليًّا، رفضتُ أخذه ولمتُه على ما فعل، فمهما كان الأمر في البلدة لم أكن أستحق الشفقة طالما لم أفقد صحتي وطالما لا زلت واقفًا صلدًا على قدمي. ازداد رفضي لكل ما عرض، ولكن مع كثرة إلحاحه لم أستطع رفض تلك الأجهزة والتي كانت علامة مميزة لعودة المغتربين من غربتهم في مختلف ربوع مصر، ربما شيء ما بداخلي كان يريدها، لزيادة مظهر الغنيمة أمام أهل القرية عند وصولي.

ساعدني منصور في حَزْم الحقائب والكراتين ووضعها على سقف الأتوبيس المغادر إلى مصر مارًّا بالأردن ونويبع. كان الطريق طويلًا، أحصيتُ طول المسافة بما مررت به من أشجار وأعمدة إنارة وتوالي الظلام والشروق حتى وصلت إلى القاهرة، من هناك أخذت سيارة أخرى خصوصيًّا أوصلتني إلى القرية. كان باب دارنا بحارة ضيقة يصعُب الوصول إليها، فتقف السيارة على أولها من أسفل الجسر، أحصيتُ خطواتي من الجسر للدار بنفس طول المسافة التي أحصيتها من بغداد للقاهرة، ثم طرقتُ الباب بقوة، صوت دقات قلبي طغى على صوت قبضة يدي فزدتُ من شدتها.

رأيت الحياة في هرولة أمي قبل أن تحتضنني باكية، في قفزة عزيزة متعلقةً برقبتي، في شدِّ يد أبي على كتفي قبل أن يطلب من بعض الصبية مساعدته في تنزيل ما ثقل وزنه من فوق السيارة وبصندوقها الخلفي، وسط مراقبة الجيران لما يحدث وإحصائهم لما يدخل إلى الدار من حقائب وأجهزة ومقتنيات دفعت ثمنها عامين مغتربًا في بلاد بعيدة، ربما لم تحمل لي كُرهًا أو ذَمًّا، ولكنها بالتأكيد لم تُعطني دفئًا ولا أمانًا.

***

محمد المصري

منحتني الحياةُ فرصةً جديدةً لاحتضانه وضمِّه، عندما أخذنا قرار السفر كنت مثل المذبوح بسكِّين حاد أنزف الدماء دون أن أشعر باقتراب الموت، وعندما رحل كنتُ أموت في كل ليلة أشعر أنها ربما تكون الأخيرة في حياتي، فربما لا أستطيع رؤيته قبل أن يأخذني الموت قبل مطلع النهار.

وكيف أهرب من الموت وقد فقدت السند الذي يقيني غدره، كان سندًا لي رأيت القوة في عينيه بعد عودتي من الحرب رغم صِغَر سِنِّه، فاستندت عليه وتحديت به الدنيا ولم يخذلني، حمَّلتُه همومًا لذنوب لم يقترفها، كنت أشفق عليه، سرقت سنوات عمره وأعترف، ولم أكتفِ بما سرقته فزدتها بغربته، ولكني عدتُ وحيدًا بلا أخٍ ولا صديق فلمَنْ سأشتكي وعلى مَنْ سأتكئ، ألم يمنحني اللَّه صادقًا تعويضًا عما فقدت؟!

رؤيته ردت فيَّ الروح، وأعادت لي الحياة، وحضنه أعاد لي قوتي المسلوبة، أمسكت بالقماش والعباءة وأنا أُخفي دموع فرحتي، سأصنع جلبابًا ولن أرتديه، بل سأقوم بتعليقه بغرفة الضيوف بجوار زِيّ الجندي الذي لا زال آثار دماء عوض الشحات تزينه.

تكفيني فرحة أمه وأخته والتفافهما حوله وحول حقائبه المفتوحة فرحتَيْن بما آتاهما، تسألانه فيجيب، ثم يصمت ليسمع صوتهما، فتسألانه من جديد ليحكي فتنتشيان بصوته، ولا يريد صمتهما فيصمت حتى تتحدثا فتتمنيان استمراره في الحديث. لم تُشبع الرؤية شوقهما إليه ولم تكفِ العيون لرأب صدع حنينهما.

أكل من طعام أُمِّه، كنتُ أتعجب من نهمه الشديد وكأنه جاع طوال عامين فيأكل في آخر زاده، عندما دخل غرفته لينام، صاحبتُه وجلستُ أمامه حتى غفل، كانت أمه تتلصَّص علينا عبر الباب المُوارَب وأصرت عزيزة على النوم إلى جواره، لم يُشبعها الصوت ولا الرؤية، أرادت الامتلاء أيضًا برائحته.

أثناء خروجي من غرفته أوقفتني زينب متوسلةً ألَّا أفتح معه موضوع الأرض قبل يومين أو ثلاثة حتى يرتاح، لم تكُن تعلم أن الشخص الجبان داخلي يرتعد خوفًا وحتى الأيام الثلاثة لن تكفيني لاستعادة شجاعتي لإبلاغه.

بماذا سأخبره؟! هل ستأتيني الجرأة لأقول له إن تعب وشقاء العامين راح هدرًا؟ والأرض لم تُسجل والورثة أخلُّوا باتفاق العجوز؟ هل سأخبره أن المحامي أبلغني أن العقد الصوري الذي كتبناه مع صابر الويشي لن يُثبت شيئًا طالما لم يُوثَّق والرجل تُوفِّي؟ أن حبال المحاكم طويلة وقضايا الأراضي مثل غربته تسرق العمر؟ نَمْ يا ولدي وارْتَحْ ولا تستيقظ حتى أستردَّ شجاعتي لأُخبرك بأني مستمر في سرقتك وسرقة عمرك.

ولكنه لم يُمهلني ما أحتاج من وقت، في الصباح سألني ووجدت آخر رسالة في يديه. فلم أنكر ولم أُجمل الكلام وأخبرته بكل شيء فلم ينطق، تركني وذهب برسالتي إلى مسكنه حيث أغصان شجرة الجُمَّيْز التي لم يغيرها غيابه، كنت أراقبه لخشيتي من ردَّة فعله وعندما تسلَّقها واستقر بأعلاها تركتُه وعدتُ إلى الدار.

عندما جمعتنا طبلية العَشاء أقلقني هدوءُه واستكانته، غضبه الذي تبدَّل أو اختفى أنبأني بوجود بركان ثائر داخله، لا زلتُ أذكر هدوئي واختلائي بنفسي بعد عودتي واكتشافي لسرقة أرضي وضياع حُلْمي. ظل يحكي عن بغداد ونهرها وشوارعها ومساجدها ومبانيها الضخمة، عن أهلها الطيبين وحكومتها التي ساندت المصريين، عن الحرب التي أخذت رجالها، عن كتب شارع المُتنبِّي وتراث أسواقها.

كان يحكي وسط انبهار أخته وعدم مبالاة أمه، ربما لم تَعِ ما يحكي ولم يشغلها، تسأله أخته عن الشوارع وتسأله أمه كيف يأكل وماذا يأكل وكيف يعيش؟ تسأله أخته عن المباني وأوصافها وهل يسكن في البيوت المرتفعة ذات السلالم العالية؟ وتسأله أمه أين ينام وكيف ينام ومَن يغسل ملابسه، وأنا في صمتي أستمعُ إليه، تسألانه عن الماضي وأنا لا يشغلني سوى القادم وماذا سنفعل في المستقبل؟

لم أستطع إضاعة الوقت فأيامه معنا معدودة، وعودته للعراق صارت حتميَّة فلن نستطيع التوقف الآن طالما لم نصل إلى مبتغانا، انفردتُ به في غرفة الضيوف، وتحدثنا كما اعتدنا، وأخبرته بما حدث، فاجأني بردَّة فعله،

كان ثابتًا هادئًا بملامح مبتسمة، ربَّتَ على كتفي بصبرٍ وقال:

– هوِّن عليك يا أبي ولا تقلق، لم نخسر الكثير على أي حال.

كنتُ أريد مواساته على سنواته الضائعة، كنت أريد الاعتذار عن ذنب اقترفته ووضعت أوزاره على كتفيه، أبلغته بصمتي وبنظراتي الهاربة، فأكمل حديثه لي قائلًا:

– يا أبي، نحن من نصنع المال، صمدنا من قبل فيما هو أكثر قسوة، سأعود وأستمر في العمل حتى نشتري الأرض التي حلمنا بها، عامان إضافيان لن يمثلا مشكلة كبيرة، وأنا اعتدت الغربة.

قلتُ له مُحاولًا التهوين عليه:

– عذري يا ولدي أنني لم أَكُن أدفع كل ما ترسل للحاج صابر، استطعت ادخار مبلغ من المال يُعيننا فيما هو قادم.

أكمل حديثه المتفائل قائلًا:

– وهذا المال هو المطلوب الآن لتجهيز عزيزة للزواج كما اتفقنا في الجوابات، دعنا نطمئن عليها.

حاولت مجاراته في الحديث، أسوق له مبررات تعينه على مصيبته، فأخبره أن العامين لم يضيعا هباء، سددنا دين أبي منصور، وسنشتري شوار عزيزة ونفرح بسترها في كنف زوج يحميها، وتبقى خطوة الأرض مؤجلة.

كنت أتحدث إليه وكأني أستمع إلى صوت الشيخ محفوظ المصري،

وتعاليمه، هنا فقط أحسست أن غيابي عنهم بسنوات الحرب كانت لها فائدة جديدة، داويتُ مرارة الفَقْد وألم فراقهم بما غرَزَتْهُ بداخله صحبةُ الشيخ العجوز، الذي تمنيت لو أني وجدتُه إلى جواري عندما عدتُ دون أعز صديق بأرض وحق مسلوب.

في صباح اليوم التالي، صحبته وذهبنا إلى المحامي لنرى ماذا نحن فاعلون.

– لا حلَّ سوى التفاوض مع الورثة للاعتراف بالعقد، الذهاب إلى المحاكم سيجعلكم تقضون ما بقي من عمركم بين براثنها وربما دون جدوى.

قالها بسهولة ويُسر وكأن الأمر هين، هي مهنته التي اعتاد عليها.

لم يكُن من الصعب الحصول على عنوان الورثة، فعلى جدار منزل الحاج صابر كتبوا بالدهان الأحمر اللامع رقم هاتفهم لمن يريد الشراء. كتبوا الاسم والرقم على ورقة ألصقوها فوق الرسمة التي فرحتُ ذات يوم بمشاركة خطَّاط البلد رسمها لاستقبال الحاج صابر الويشي وزوجته عند عودتهما من الحجاز، رسم مركبًا وطائرة في سماء زرقاء فوق الكعبة. جاء رقم هاتفهم بلونٍ أحمرَ دام ليغطي كلمة مغفور في نهاية الجملة المكتوبة "حج مبرور وذنب مغفورٍ"، فكان البِرُّ من نصيب صابر الويشي وتحملوا هم الذنب.

تواصلنا معهم وجاءت زيارتنا لهم في المنصورة سريعةً لم تستغرق الجلسة سوى دقائق معدودات، لم يعترفوا بالعقد ولم ينكروه، تفاوض معهم صادق ولم أستطع إخفاء نظرات إعجابي بقدراته على التفاوض حتى توصلنا إلى حلٍّ وسط، الأرض وكتابة عقد جديد مقابل مبلغ جديد من المال، ولكن بشرط إضافي هو شراء نصف فدان وليس مجرد القيراطين، وافق صادق

بعد أن أدار حساباته داخل رأسه، بعد أن خرجنا سألته:

– هل ستستطيع يا صادق توفير المبلغ المطلوب في الوقت المناسب؟ أشعر أنه سيكون كبيرًا عليك يا ولدي؟

قال لي بثقة:

– لا تقلق يا والدي فعملي مستقر، وراتبي جيد، ولم يَعُد لدينا التزامات سوى الأرض.

دعوتُ له بالتوفيق أن يمنحه اللَّـه ما يريد ويثبت خطواته.

فأكمل حديثه:

– دعنا نطمئن على عزيزة، قبل سفري، حتى لا يشغلني همُّها في غربتي.

كان هناك من شبان القرية من هم مثل صادق، تركوا البلد واغتربوا من أجل المستقبل، عند عودتهم كانت الخاطبات تجول البلد بصورهم لعرضها على العرائس الجاهزات للزواج، وكنَّا نستقبل كل يوم الكثير منهم. لم أُرِد تزويجها لمغترب، فاخترتُ لها من المتقدمين مَن اغترب وعاد بالمال ثم اشترى الأرض وبنى المنزل واستقر، لم أغفل حسبه ونسبه أيضًا فكان من عائلة ذائعة الصيت في البلد. أخبرَتْ زينب الخاطبة بالموافقة المبدئيَّة، بعد أن تناولنا الموضوع على طاولة الغداء، لم تُعقِّب عزيزة بالرفض أو الإيجاب، تركت المائدة وذهبت إلى غرفتها، أعلم ما بها ولكني أتجاهله، سيسترها رجل أختاره لها بموافقة أخيها وأمها، حتى أتخلص من ذنبها ومن تلك النظرات التي ترمقني بها بين الحين والآخر وكأني كنت السبب

في تدميرها، لا زلت أراها صغيرةً حتى ولو تجاوزت العشرين من عمرها وأصبحت نظرات أهل البلد تدنسها بسبب تأخُّر زواجها. لا زلت مقتنعًا أنها لا تعي ولا تعرف كيف تدير شئونها، وأنا لن أُجبرها على الاختيار حتى لو أجبرتها على الزواج، بما شرع اللَّـه ستجلس مع خاطبها وعندما تعلن الموافقة سنتمم الأمر أو سنمنح غيره الفرصة للتقدم.

عندما جاء اليوم الموعود، وأتي الشاب بصحبة أهله، فاجأتنا عزيزة بموافقتها، حاولت الحديث معها فكان قولها إن الأمر والنهي لي، شعرت أنني نجحت في تربيتها في تلك اللحظة. أُقيمت الأفراح والليالي الملاح، طافت الجرارات شوارع القرية محملةً بجهازها وصناديقها ونساء القرية يُغنِّين ويرقصنَ خلفها، حتى وصلت إلى بيت العريس الموعود، أتممنا الفرح بكل خير، لم يأتِ إبراهيم المصري، ولا زوجا عمتيها، ولكن عمتيها كانتا إلى جوار زينب منذ بداية التجهيز وحتى يوم الصباحية، حينما أحضرت أمها المنديل المخضب بالدماء، لتعلن للبلد كلها كذب ادِّعاءات خضر وأن عزيزة عاشت بشرفها ودخلت بيت زوجها عزيزة.

***

عزيزة

لم يكن اسمه خضر، ولكني ناديتُه به، خانني لساني ونطق بما أراده قلبي، طوال شهرين كنت عاجزةً عن النطق، الكلمات التي خرجت من فمي كانت ردودًا مقتضبة لم تُجِبْ عن أسئلة بقدر ما وجهت لمحدثي رسائل بأني لست على ما يُرام. كنت أخشى على سمعة عائلتي ووالدي، فحاولتُ التأقلم، كانت الساعات تمر كالدهر وكنت أنتظر خروجه لأختلي بنفسي حتى مع علمي أن أمه وأخواته لن يتركنني في حالي، فبزواج ابنهم لم يزد أفراد العائلة بامرأة عادية ولكنها أيضًا خادمة، وهذا ما وجدنا عليه آباءنا وجدودنا فعدم طاعتهم تُعدُّ من الكبائر.

أنتهي من الأعمال المنزلية وأهرب إلى غرفتي رغمًا عن إرادتهم، فأفتح صندوقي وأُخرج ما به من ملابسي حتى أصل إلى قاعه حيث يقبع منديل قماشي ملفوف على فرع ذابل من شجرة صفصاف، مجدول كعِقْد كان ذات يوم أخضر يُنبئني بمستقبل مزدهر لم يأتِ قَطّ.

طوال شهرين كنتُ أحاول الهروب من نظرات نساء الدار ومن سُمِّ

كلماتهن ومن همزاتهن ولمزاتهن لي، أتجاهل اسم خضر الذي يتردد وأتصنَّع عدم سماعه ليزداد إصرارهن ويوجهن الأسئلة أو الأخبار عن حالته وعما يفعله في القرية، ويخرسن عندما يدخل زوجي أو أحد رجال البيت.

أتعجَّب فإذا كُنَّ رافضات لتلك الزيجة فمَنْ باركها ولماذا تقدم ولدهن؟!

عندما أخبرني أبي عن الزواج ووجدت أنه لم يَعُد هناك مفرٌّ وافقت سريعًا، وافقت على أول المتقدمين فطالما اسمه ليس خضر فكل الرجال سواء.

اعتلاني مرات عديدة ولم أنتشِ، أخذ مني كل ما أراد رغمًا أو بإرادتي، ولكن رغبتي لم تشبع، لم أدرك ما كنت أحلم به وأتمناه بين أحضان خضر. كان يحاول معي كل ليلة وأستمع إلى نقاشه مع أمه على باب غرفتنا بينما تسأله لماذا تأخر الحمل وهل أرضخ له أم أن بالي مشغول بغيره، أسئلة ليست بريئة أُضطر بعدها لتحمُّل خشونته عندما يغلق الباب ويواجهني، فأرى في عينيه تحدِّي إثبات رجولته على جسدي المسكين.

كنت أرتدي العقد وأرتدي ما خفَّ من الملابس فأقف أمام مرآتي، أتفحَّص ثنايا جسدي وأتحسَّر على عدم إهداء جمالي إلى من يستحقه.

لم يكن اسمه خضر، ولكني نطقتُها في حضنه كان مستندًا على ذراعيه، فاجأته الكلمة فسقط بجسده على جسدي فأحسستُ بثقله على نهديَّ حتى اختنقت أنفاسي وبات الموت قريبًا فابتعد.

لم أَعِ ما حدث ولم أفهم.

نظرات عينيه التائهة أحسستني بالجُرم فوعيت وتذكَّرت، ولم يرحمني

أحدٌ بعدها من بين لكماته القاسية، لم أصرخ ولم أقاوم تحمَّلتُها فقد كنت أستحق.

أنا الخاطئة الموصومة بالعار الآن، نطقت باسم حبيبي بين أذرع زوجي، ولكن اللَّه وحده يعلم أني لم أَخُن، نطقي لاسم خضر لم يكُن خيانة فقد وعدته أنني لن أخلع العقد ما حييت، فإذا وُصِمت بالخيانة فإن خضر هو مَنْ خُنْت، هم سلبوني حياتي ولم أستطع الرفض.

بدأت النهاية، أسرَّ زوجي ما حدث بيننا فعاري هو عاره، كنَّا نضحك خارج الغرفة ونبكي داخلها، حاولت تقديم القرابين تحت أقدامه لكنه لم يمنحني أبدًا الغفران.

ذات ليلة قدمت له فيها كل شيء ناديته باسمه عشرات المرات ونعته برجولته في كل مرة حتى إنني أحسست بقوة انتشائه وانتهينا، وجلست عاريةً تحت قدميه بينما كان يدخن سيجارته وبادرته بالقول:

– عشرون عامًا من عمري قضيتها في حب ابن عمي، بمباركة أهلنا حتى حُرمت منه، لن أكذب ولن أدَّعي نسيانه، ولكني الآن ملكُك أنت، فساعدني.

أجابني بشروده:

– ملكي جسدًا، وعقلك وقلبك معه.

– انظر إلى حاله، ماذا سيفيده عقلي وقلبي، لن نجتمع معًا أبدًا، ولن أكون لغيرك، ساعدني حتى أنسى، امتلك ما تبقَّى داخلي بلا مالك.

قلتها بينما دموعي تنهمر، فمسحها بيديه ورَبَّت على خدِّي، ثم رفع رأسي حتى أنظر إلى عينيه ثم قال:

- أنا أعلم لماذا وافقت ولماذا تزوجنا.

أجبته بنظراتي الحائرة... فواصل:

- أردتِ الهروب..

الهروب من البيت ومن نظرات الأب والأم..

الهروب من أسئلة الناس حول أشعار خضر وتأخُّر زواجك..

الهروب من حياتك والانغماس في حياة جديدة..

صَمتُ...

- لن تكوني لي... أبدًا.. أنت طالق..

كانت الدموع تنهمر من عينيه، جرح كبير أصاب رجولته شعرت به وأنا الصغيرة التي تجهل مداواة هذا النوع من الجروح.

قالها وخرج بعد أن أخبرني بأنه لن يدعني أرحل في الليل، وسيبيت الليلة بالخارج حتى يأخذني لدار أبي في الصباح مُعززةً مُكرمةً ولن يخبر أحدًا عن سبب الطلاق.

مرت الليلة كالدهر، لا أتذكَّر أنني توقفت عن البكاء، ارتديت ملابسي وخرجت من غرفتي ذاهبةً إلى أمه، أردتُ الاعتذار لها، ولكنها كانت قاسية، لم تفهم، كنت أبحث عن حضن لم أجده.

لم أجد أمامي أي فرصة للنجاة، كانت الحظيرة ملتصقة بالبيت حيث يحتفظون بالبذور وعلف المواشي والأسمدة... وأقراص الغلَّة..

قررتُ الرحيل..

تسللتُ إليها، وفتحت الصندوق وأخرجت قرصًا تأملته قليلًا بينما أرى طيف خضر بين الدموع المرفرفة على جفوني يبتسم ويلقي أشعاره..

فما بال الهوى يا خضر، لم يُرِدْ لنا أن نجتمع، فربما يجمعنا الفراق..

ابتلعته، وغامت الدنيا..

***

زينب

كنصفِ امرأةٍ تعيش نصفَ حياةٍ غادرت عزيزة الدار لتلحق بغربة أخيها وأعيش بين جدران خالية كنصفِ أُمّ.

وُلِدت مثل أي بنت في بيوت الفلاحين بقصة مكتوبة منذ مولدها وحتى نهايتها، بلا قرار ولا اختيار، تخدم أباها وأهلها وكل ذكور الدار، فتكبر وتتزوج ويتبدل الأشخاص ولا يتبدل العمل. تخدم زوجها وأهله وحينما يحين الموعد لتجلس وتجد من تخدمها تكون حياتها قد مضت بعد أن فقدت كل ما له طعم فيها، تعجن وتخبز وتزرع وتحصد وتربي وتبيع دون توقف ودون كلل بلا تميز، أو ذكرى، أو شاهد، أو تأثير، تميُّز البنت بجسدها وجماله قد يُسعدها أو يكون سببًا لشقائها، وكلما زاد الجمال زادت فرصتها في حياة مُنعَّمة، ولكن كل ذلك مشروط بولائها وطاعتها ورضا وَليِّها عنها.

هذا ما نتعلمه وما نورثه لبناتنا، أن تمضي في حياتها، حتى لو عاشت نصف حياة.

خرجت عزيزة من الدار كنصف امرأة لتُذكِّرني بما مضى، ومَن يمكنها أن تشعر بها أكثر مني، لم تتزوج خضر ولم تتوقف حياتها فتزوجت من رجل لا تعرفه ولم تعشقه ولم تَتمنَّه، في بلدنا لا تتوقف حياة المرأة إذا لم تتزوج من تحب، الحب ذاته ليس مسموحًا.

هذا ما ذكَّرتني به عزيزة بعد كل تلك السنوات عندما تزوجتُ من محمد المصري وتركتُ حبيبي إبراهيم.

أنظر إلى ابنتي فأراها تشبهني، ولكنها كانت أجرأ، هي أعلنت حبها وأنا أخفيته، وخضر كان أقوى من أبيه على الرغم من أنه لم ينتصر لحبه.

كان إبراهيم المصري هو شاغلي، أنظر إلى عضلاته المفتولة من فوق سطح دارنا المواجه لأرض أبيه وتأسرني قوة ضربته للفأس، فأشعر أنه يزلزل الأرض تحت أقدامه لتعطيَه من خيرها، كنت أحلم به وأتمناه زوجًا، فلاح ابن فلاح مثل أبي وإخواني، قوي وصلب ومغامر فشاغلته بنظراتي حتى أوقعته في شباكي. أحمل جرَّة الماء وأتعمَّد السير أمامه حتى أصل إلى النهر وأتلكَّأ بينما تلتصق ملابسي المبللة بجسدي وأنتشى بنظرات الشهوة في عينيه، أراقبه يتلصَّص على ما يظهره الهواء من تحت جلبابي بينما أنظف مصطبة الدار في العصرية، ثم أختلي بنفسي وأغمض عيني في حضنه فأشم رائحته في حُلْمي، أعلم أيضًا أنه تزوجني في خلوته مئات المرات.

انتهت الأحلام لأجد الشيخ محفوظ المصري يقرأ الفاتحة لمحمد وليس إبراهيم، والزواج في قريتنا يقرره الرجال، تزوجت محمد ونسيت إبراهيم، وتزوج إبراهيم ولم يَنْسَني، فكانت المشكلات بيني وبين زوجته يومية حتى تركنا الدار الكبيرة.

عشتُ ما تبقَّى من الحياة زوجة لمحمد المصري، أحببته بالعِشْرة والتعوُّد وصنت عِرْضه وغربته ونسيت طعم الزواج، وذبل جسدي في هجرانه، ولكني عشت ومضى العمر.

رأيت ما مضى من حياتي في عيون عزيزة المنكسرة، ولكني لم أجرؤ على النطق، كنت أزورها في دار زوجها وأحاول التخفيف عنها والتهوين عليها دون أن أُذكِّرها بحكايتها، ولكن كل كلمات المراوغة واللف والدوران لم تستطع مواساتها، هي حزينة، ولكن نصف امرأة لا تملك حق الحياة ولن تستطيع البَوْح.

ومثلما مضيتُ أنا حاولتُ إقناعها أن تمضي هي أيضًا وتكمل حياتها، ولكنها ابنتي وأنا أعرفها، نظرة باكية من عينيها لا تحمل أي دموع جعلتني أدرك أنها عزيزة كما أسميتُها، أدركت أنها تختلف، أدركت أنها لن تمضي..

عدتُ إلى داري.. أحمل داخلي غُصَّةً أنبأتني أن عزيزة ستعود.

***

صادق

كانت رحلة العودة تلك المرة قصيرة، ولم تصحبني الدموع كما حدث في الرحيل الأول، ربما ساعدني الاعتياد على خداع إحساسي بالمسافة والزمن، قابلني أصدقاء الغرفة بالترحاب والسلام، سألوني عن مصر وأحوالها، وتحدثنا عن حال العراق.

عامان بعيدا عن مصر، لم تتغير كثيرًا فضيق الحال مُستمرٌّ ومُنحنَى ما بعد الحرب يواصل طريقة نحو الهبوط، ولكن في العراق كل يوم يحمل خبرًا جديدًا، نصرًا مزعومًا أو هزيمة مُبرَّرة. اعتيادنا على تكرار الأخبار أصابنا بالبلادة فأصبحت كل الأيام سواء وكأنه لم يَعُد هناك أخبار جديدة، كل القديم يُعاد في روتين قميء وأيام متشابهات.

لم تحمل حياتي أي اختلاف، مواعيد محفوظة تتكرر بين الاستيقاظ والذهاب للعمل والعودة، أسير في الطريق نفسه كل صباح ومساء وأقابل نفس الأشخاص في حدث يومي بدءًا بصدفة ثم صدفة مكررة، حتى أصبحت رؤيتهم عادةً والصدفة هي ألَّا يحدث اللقاء.

جلستي اليومية أمام كُشْك الكتب في مشهد جعلتني كتمثال يميز المكان، صورة ثابتة لجماد لا يحمل أي مشاعر، روتينًا قررت كسره بتفحُّص وجوه المارَّة، ولكني بعد فترة وجيزة اكتشفت أنه حتى الوجوه تتشابه.

كنت أعرف المغترب بمجرد رؤية وجهه، فكل وجوه المغتربين تتشابه مهما اختلفت جنسياتهم أو العِرْق والدين والبلد التي ينتمون إليها، تحمل نفس الملامح الباحثة عن كنزٍ ما، جاءوا إلى هنا للبحث عنه والعودة به، ليكتشفوا أن الوصول له ليس سهلًا وأنه لا كنز حقيقيًّا ملموسًا يمكنهم الحصول عليه. تسخر منهم الحياة وهي تعلمهم درس الكنز الموجود في الرحلة، ولكن كنز الرحلة لن يغنيَهم ولن يحقق أحلامهم التي تركوا بلادهم من أجلها، فتشترك الملامح كلها في نظرات الفَقْد والضحكات التائهة التي تحاول الوصول إلى لحظة حقيقية من السعادة، ولكن السعادة لا يمكن تحقيقها بالزيف فتنكسر عيونهم تحت عبوس الحاجبين، سيماهم على وجوههم، تربطهم جميعًا ملامح التِّيه.

يُذكِّرني الرجال العجائز في العراق بجدِّي الشيخ محفوظ، تحمل وجوههم ملامح ملَل المنتظِر لعودة غائب في حرب بدأت بلا ذنب لهم وسلبت منهم ولدًا أو أخًا أو صديقًا ولا أحد يعلم موعدًا لانتهائها ولا كيف ستنتهي. والوجوه المَلُولَة دائمًا ما تكون ثابتة بلا هزات أو تعبيرات، تراهم كأصنام مُلتفِّين حول أجهزة الراديو أو ممسكين بالجرائد على المقاهي بلا تعبير يمكن أن تستشفَّه من عيونهم. فقط أمل ضعيف يمكنك أن تميزه في صوت تنهيدة تخرج حارَّةً من جوفهم مع خبر لنصر أو تقدم أو اقتراب تحقيق هدف،

على الرغم من أن ذاك الهدف لم يكن يومًا مرادهم أو مطلبهم.

وكل النساء في العراق تتشابه، أشباح لنساء فقدن شغف الحياة، حكم جائر سلبهن الرجال وتركهن لتحمُّل المسئولية بلا داعم، ولم يشعر بحاجتهن للعاطفة، سلب منهن الروح، وحق الحب، والشعور بالطمأنينة، والدفء.

في تلك الأيام كانت عيونهن حزينة ولا شيءَ أكثر من الحزن يمكن تمييزه، فالحزن يسلب كل مشاعر أخرى بجواره ويسيطر على الملامح فلا تستطيع أن تُظهر شيئًا غيره.

منحتني جلستي بالشارع خبراتٍ كثيرة، ولكنها خبرات بلا قيمة إذ لم أملك وقتًا ولا مكانًا لاستغلالها وسط حياتي الموصومة بالتكرار.

قررتُ صنع حياة أخرى، حياة أكبر من تلك المحصورة بين موعدَي الاستيقاظ والنوم وسط ساعات محددة من العمل.

أصبحتُ أنتظرُ وقت انتهاء العمل حتى أهرب إلى الشوارع أطوفها وأمارس هوايتي في تفحُّص وجوه الناس، حتى اعتادت قدماي الطرقات ولم تعُد صلابتها تؤرقني، ولكن إحساس الهروب لازمني. أهرب من العودة إلى غرفتي. أهرب من تكرار السير في نفس الشارع أو الجلوس على نفس المقهى أو تناول نفس الطعام. أهرب من النوم خوفًا من إنهاء اليوم. أسهر حتى أهرب من اتخاذ قرار محو يوم سابق وبدء يوم جديد.

مارستُ هوايتي في الهروب من الشوارع الواسعة إلى الأزقَّة والحارات، كنت أجد الدفء كلما اقتربَت البيوتُ من بعضها على جانبَيْ حارة ضيقة،

لم أخَفْ يومًا أن تعصرني بين ضفتيها، كنتُ أتخيلها تقترب لتحتضنني، وكنت أرى في بُعد البيوت طرفَيْ شارع واسع بحرًا لا ضفاف له، لذا كلما ضاقت الحارة زاد إحساسي بالأمان.

وصلتُ إلى نهاية حارة مسدودة لا منفذَ بها سوى أن أعود من حيث أتيت، كثيرًا ما فعلت ذلك، ولكن تلك المرة قررت ألا أعود، أمامي مباشرة كان بيتٌ ذو طابق وحيد شبه متهدم يعترض الحارة ليغلقها ويصنع نهايتها رغم ضعفه، قررت دخوله واكتشافه، عبرت الباب ودخلت ولم يعترضني شيء، كانت شقة مفتوحة ووحيدة، بها باب مظهره أوحى لي إنه لم يُغلق أبدًا، وأثاث قديم، ولكنه نظيف ومُرتَّب وعلى الأرض. بجوار كنبة قديمة تشبه الموجودة في غرفة الضيوف بدارنا كان يجلس رجل شيَّبه الزمن وأظهرت السنوات آثارها عليه، مُسنٌّ، ولكنه ودود، ما إن رآني حتى ابتسم قائلًا:

– تائه؟ أم قادتك قدماك لتطمئنَّ على عمك كاظم؟

لم أردَّ، كان عراقيًّا، عكس ما توقعته قبل الدخول، أن يسكن ذلك البيت مصريٌّ مثل كل بيوت حي المربعة.

واصل حديثه، بينما يقلب فنجانًا صغيرًا على الطبلية التي أمامه، ليجاور فنجانًا آخر يقف في وضع الاستعداد لتلقِّي القهوة من كنكة نحاسية صغيرة كان ممسكًا بها بحرص فوق نار سبرتاية عتيقة.

– اقترب واجلس، اشرب معي القهوة واحْكِ لماذا قادك فضولك للدخول.

اقتربتُ وجلستُ بجواره، صبَّ القهوة ثم سألني عن قهوتي، أخبرته وكانت تلك أول كلماتي في جلستنا، ولكنها لم تكُن آخرها، تحدثنا لما يزيد على الساعتين، أخبرته فيهما كل شيء عن ذلك الطفل الذي فتح عينيه على الدنيا ليجد نفسه ينتظر عودة أبيه، وما إن عاد واحتضنه حتى أخذته الغربة وفرَّقتهما من جديد، وحكى لي عن ذاك الرجل الذي فقدَ زوجته ثم تركه أبناؤه للذهاب إلى الحرب ولم يعودوا.

كانت مفارقة أن يلتقي ابنٌ يبحث عن أبٍ مع أبٍ يبحث عن ابنٍ جمعهما منزل متهدم في غربة كانت السبب!

أحببت عم كاظم، وأحببت قهوته ومنزله، نمتُ على كنبته وأصبح ملاذًا آمنًا لي من روتين أيامي، طلب مني أكثر من مرة أن أترك غرفة المغتربين وأسكن معه، ولكني رفضت، شيءٌ ما داخلي رفض أن يحمل الرجل حملًا إضافيًّا لابن جديد ومسئولية أُبوَّة قد ترهقه.

مرت شهور كثيرة كنتُ أرسل فيها لأبي الحوالة الشهرية، ولكني لم أرسل له الخطابات كما كانت عادتنا، والغريب أني لم أستقبل منه أي رسائل، واكتفينا بمكالمة هاتفية بمنزل أحد الجيران، كنت أطلبهم عبر سنترال القرية وأطلب التحويل لمنزل الجار، ثم أنتظر دقائق حتى ينادوه وأعاود الاتصال مرة أخرى بنفس الطريقة.

طلب مني عم كاظم أن أرسل له لأطمئنَّ عليه وعلى أحوالهم، وألَّا أقطع عادةً بدأتها واستمررنا عليها، وحذرني من فتور العلاقات في الغربة، أمسكت أوراقي أخيرًا، ثم كتبت الرسالة.

***

محمد المصري

أخذته الحياة والغربة فتأخرت الجوابات، ولكن وصول الحوالة في موعدها يمنحني الطمأنينة، هو بخير لم يَنْسَنا مستمرًّا في غربته من أجل حُلْم بات قريبًا. أفتقده وأفتقد كلماته وتمنعني كبريائي أن أكون البادئ بالإرسال، اعتدنا منذ سفره أنه دائمًا يكون المُرسِل وأنا المُرسَل إليه، يتحدث دومًا وأقرأ ثم أرد، يسأل وأجيبه، فلماذا نستبدل الأدوار، أعتقد أن الحوالة تطمئنه أيضًا أننا بخير ونتسلمها في الموعد، هل يخشى أن أرسل له ما يُفاجأ به من أخبار سيئة مثلما حدث سابقًا؟ ربما، هل جفانا قلبه ولم يَعُد يريد الاطمئنان على أحوالنا؟! هي الحياة أخذته ولا شيء آخر.

خَلَت الدار من صادق وعزيزة وظل طيفهما يلاحقني، أصوات ضحكاتهما وحديثهما ما زالت تصنع الصدى بين جدران الدار الخالي، تلتفت زينب كثيرًا نحوي وأعلم ما يدور داخلها، ولكني لا أقوَى على المواجهة، أصبحت رفيقتي الوحيدة الآن في الأرض والبيت الخالي تستمع معي إلى صدى صوتهما دون تعليق.

ازدادت جلساتنا معًا، على طَبليَّة الطعام، وفي صحن الدار، نتسامر كثيرًا، نحاول الهروب من قسوة الفراق بحكايات من الماضي، نحكي عن سنوات الخِطْبة وعن أيام الزواج الأولى، نحكي عن الشيخ محفوظ وعن عصاه وكُتَّابه، نحكي عن القرية وأهلها. ثمَّة حكاية واحدة فقط أبت أن ترويها، حكاية دارت أحداثها في ست سنوات عاشوها دوني، نما وترعرع فيها صادق وكبرت وازدادت جمالًا وأنوثة فيها عزيزة، كثيرًا ما كنتُ أستدرجها لتقصَّ لي ما حدث في سنوات والدي الأخيرة فتبدأ السرد ثم تتوقف قبل أن تكتمل الحكاية، سقطت تلك السنوات من حياتي للأبد لم أعرف عنها سوى ما قضيتُه على الجبهة، ولم يُنغِّصها سوى ألم فراق الصديق وقسوة غدر الأخ قبل عودتي.

مضيت في حياتي دونها، واستمرت الحكاية حتى وصلت لتلك الأيام، دومًا تمضي الحياة لا يُوقفها ولا يعطلها فقدان حكاية أو ألم لرواية لم تكتمل أو اكتملت بنهاية سيئة، تتخطى الحياة كل العقبات وتستمر..

كنت أخرج كل صباح إلى الحقل أزرع أو أحصد أو أروي أو أحرث الأرض، أقف لالتقاط الأنفاس وسط القيراطين وعيناي موجهتان نحو نصف الفدان أمتع نظري بامتداده، ثم أُحصي الأيام المتبقية حتى أول الشهر موعد الحوالة وأحصي الشهور المتبقية لامتلاكه.

تلحقني زينب بصينية الغداء كما اعتدنا ثم نرحل معًا قبل الغروب، أضعها على ظهر الحمار وأسير إلى جوارها مُلقيًا التحية على كل مَنْ أمرُّ بهم في الطريق إلى الدار، حتى أسمع ردهم للتحية وهم ينادونني باسم صادق.

تسألني زينب عن صادق كل يوم على الرغم من معرفتها أن الجواب الذي اعتاد إرساله لا يأتي سوى مرة واحدة كل شهر، أهرب من الإجابة، لم أبلغها بتأخره.

أسألها عن عزيزة وكيف تعيش فتبلغني أنها سعيدة في دار زوجها، تعيش مثل كل البنات، أُلِحُّ في أسئلتي علَّنِي أنتزع منها إجابة أنتظرها، ولكنها لا تمنحني إجابات. لم يُرضِني لفظ السعادة في المطلق دون اقترانه بأي تعبير آخر أنتظره، لأطمئنَّ هل تخطت حكاية قديمة أو دفنتها في فناء دارنا قبل رحيلها أم أنها لا زالت تحتفظ بها.

لم تُجِبْ زينب، ولكن عينا عزيزة كانتا دومًا تحملان الإجابات التي لا أريدها ولم أتمنَّها. تحمل لومًا دائمًا فأكفُّ عن أسئلتي التي أصبحت تكره الإجابات.

حافظت على صلاة المغرب في المسجد وداومت على جلسة الرجال أمامه حتى صلاة العشاء، سُنَّة أبي الشيخ محفوظ التي لم أغيرها..

بعد العشاء كنت أجلس على المصطبة أمام الدار أشرب الشاي وأدخن وأتلقَّى تحية المارَّة وربما جلساتهم القصيرة لاقتناص لحظات من راحة على مصطبتي قبل مواصلة مشوار طويل، فتنطلق أحاديثهم لتملأ فراغًا صامتًا أعيش فيه لأوقات طويلة، نتحدث عن أحوال القرية والناس وقد تطول الجلسة فيتسع الحديث لأحوال البلاد والعباد، لا أمَلُّ الاستماع إلى الشكاوى المكررة عن ضيق الأحوال أو التحسُّر على زمان مضى، وأيام كان الجنيه يشتري الكثير قبل أن يصبح بلا قيمة، من ناصر للسادات لمبارك

ومَنْ قبلهم لا نملك سوى حديث وكلام.

كنت أستغل أحيانًا الفرصة حينما تجمعني الجلسة مع أحد المثقفين لأسأله عن أحوال العراق، أطلب منه أن يحدثني عن صدَّام وعن حروبه ضد إيران، وأتوسل له أن يأتي ويبلغني بأي معلومة قد تزيد من اطمئناني على أحوال صادق أو تمنحني الأمل في استقراره وفي استمرار الحوالة.

كانت أيامًا متشابهاتٍ لا يُنغِّصها سوى أوقات الوحدة التي يرهقني فيها عقلي بالتفكير فيما هو آتٍ.. وفي بعض الأحيان فيما مضى.

في تلك الليلة كنتُ أجلس وحيدًا أنتظر صاحب النصيب في حديث اليوم، الزائر المنتظر الذي سيصحبني في رحلة المساء ليتناول كوب الشاي الثاني الجاهز دائمًا لاستقبال شخص ما.

فاجأني حضوره.

لم يَعُد مثلما عهدته، كانت دَخْلته ومشيته وهيئته مَهِيبة، ولكنه الآن منكسر.

لم أصدق حكايات الناس عنه وعن سوء حاله حتى رأيته.

جلس إبراهيم إلى جواري، ولم يتحدث، دقائق مرت كسنوات استرجعت بها كل ما فعل، كل آثامه وجبروته وقسوته ورودوه، جشعه وظلمه، لم أتعجَّب لحاله ولم أتوقع ما يريد ولم أشغل بالي في وضع أي إجابات أو ردود لأسئلة محتملة.

دفعت كوب الشاي الخالي للخلف وأزحتُ (قُلَّة) المياه جانبًا حتى لا تطولها يداه وانتظرته.

كنت فقط أريده أن يتحدث، فقط الفضول جعلني أنتظر حديثه لمعرفة ما الذي أتى به إلى مصطبتي منكسرًا.. انتظرتُه وليته يدرك أن كل لحظة تمر كانت تزيدني قسوةً وتحفزًا.

– سامحني يا محمد.

كانت تلك أول ما نطق من كلمات، لم تغير بداخلي شيئًا، لم أعُدْ أحمل تجاهه أي مشاعر، كنت أعلم أن ردِّي سيكون قاسيًا.

– ذنوبك كثيرة يا إبراهيم، ذنوب لا تُغتفر، لا سماح ولا صفح يا بْنَ أبي وأمي.

كان يبكي، يتوسل، تخنق كلماتِه الدموع:

– خضر يا محمد، ولدي الوحيد، ضاع، طُفت به أرجاء المحروسة، لم أترك شيخًا ولا وَليًّا من أولياء اللَّه، كل المشايخ كان ردهم واحدًا.

الحل عندك وحدك يا محمد..

– خضر من جاء بك إلى هنا؟ الآن يا إبراهيم جئتني منكسرًا من أجل ولدك؟ وتطلب السماح؟ ومَنْ سيعوضني أنا عن عمري وعن خدمتي في أراضي الخلق، من سيعوضني عن غربة صادق وعن سُمعة عزيزة؟

صمت قليلًا، وحاول تمالُك نفسه ثم واصل:

– اطلب ما تريد، أنا سأعوِّضك وسأنفذ كل ما تأمر به.

– إذا كنت تريدني أن أستمع لك، أن نفتح مجال هذا الحديث رجِّع كل ما سلبت أولًا، الأرض والدار وكل حقي في ميراث الشيخ محفوظ، وبعدها ممكن نتفاهم..

أخفض رأسه ونظر إلى الأرض، بينما يفرك كفَّيْه ببعضهما بشدة:

– أنا بعت الأرض والبيت كما تعلم، وأنفقت ثمنهما على النذور وعلى المشايخ، خسرت كل ما أملك ولم يَعُد لدي سوى خضر..

لم أدْرِ بما أرد، لم أجد ردًّا أو قولًا أو فعلًا، انسحبت ووقفت سريعًا وهممت بالدخول إلى الدار، أمسك بطرف جلبابي كطفل صغير متعلق برحيل والده خوفًا..

– من أجل خضر يا محمد، سامحني، خضر ولدك رَبَّيته في دارك مع صادق وعزيزة، ارحمه يا محمد وسامحني..

دخلت إلى الدار، وأغلقت الباب.

وقفت قليلًا مستندًا بظهري عليه أسترِقُ السمع لخطواته المبتعدة عن الدار.

رأيت زينب تقف في مواجهتي تسألني متعجبة لماذا دخلت مبكرًا، لم أنطق، فقط دخلت إلى غرفة الضيوف وجلست على أرضها مُعلِّقًا نظري بالجدار الذي ما زال يحمل عصا أبي، آخر ما ورثت منه، وبذلة الحرب المزدانة ببقعة من دم عوض الشحات.

أغمضت عيني وجلست أنتظر صوت البوسطجي علَّه ينقذني بجواب من صادق، لأرد عليه بطلب عمه فربما يكون أشجع مني في الرد، ويقرر ما لم أستطع النطق به.

***

عزيزة

لم أَمُت، في حالة نادرة لم تحدث من قبل بقريتنا، ولكنه القدَر الذي جعل زوجي يختار الحظيرة للمبيت في تلك الليلة حتى لا يشعر أحد بالدار أنه سيبيت خارج غرفتنا فانتبه لصوت سقوطي، القدَر الذي ساق إليه زجاجة الزيت المنسية بجوار الفرن حيث سقطتُ ليدركني بجرعات منها، ويلهمه كيف يجعلني أُخرج ما بمعدتي سريعًا.

نجوتُ، أراد اللَّـه لي الحياة، بينما أراد الجميع لي الموت على قيد الحياة.

خرجتُ من المستشفى إلى داره، وتأخر الطلاق فلم يعلم أحد ما حدث. ظنوا إنني أخطأت في تناول شيء مسموم بينما نلهو معًا بالحظيرة، كان بارعًا في إخفاء حقيقة مشاعره نحوي أمامهم وأكثر براعة في إظهارها بغرفتنا. لم تمضِ سوى بضعة أشهر على زواجنا حتى صارحني بأنه سيتزوج بأخرى، ولم يعترض أهله، كانوا يكرهونني من البداية، وكانت إهانة لكرامتي تمنَّوْها وحققها ولدهم، كان تصريحًا منه أمام الجميع بأنني أنثى مُعابَة، الزوجة الثانية لم تكُن مشكلة، هي عادة في بلدنا وشرع حللَّـه اللَّـه وكثير فعلوها،

ولكنها كانت دومًا مسببة بزوجة لا تنجب أو تأخر حملها أو تنجب إناثًا فقط وهذا يحتاج إلى وقت لإثباته. أو لزوجة ثانية تساعد في الحقل أو تربية الطيور، ولكن دارنا كانت مكتظَّة بنساء العائلة، كل ذلك جعلهم ينظرون لي بنظرات لاذعة فازداد الهمس حول العيب الذي جعله يختار امرأةً أخرى أقل مني جمالًا، ورضيت وعشت معه، كان الطلاق عارًا ولم تكن لديَّ الطاقة لتحمُّله أمام أهلي أو الناس فرضيت وعشت. يسألونني عن حالي فأحمد اللَّـه، يعلمون أني لست بخير وتعطيهم إجابتي ما يريدون لإراحة ضمائرهم.

آثار اعتدائه على جسدي لا يراها غيره، نسيت النظر في المرآة متعمدةً حتى فقدتُ ملامحي.

رضيت وعشت امرأة بلا حقوق ولا حماية من أبٍ يعلم وزر ما صنع، وأخ شغلته غربته وأحلامه في امتلاك أرض ومال يُغنيه عن مصير أبيه، وعَمّ هو أصل كل مشاكلي، حتى أزواج عماتي لم يَعُد لهم وجود في حياتي، وأخوالي لن يتدخلوا في وجود أهل أبي.

رضيتُ لأني لم أجد مَن يستمع لشكوتي، عندما يؤلمني الضرب وتُبكيني الإهانة لا أجد سبيلًا للخلاص سوى طلب الطلاق، وكلما طلبتُه زاد العقاب، فعشتُ في صمت، وعندما طال الصمت حدث الطلاق.

حدث عندما أراد هو، عندما أيقن أنه سيكون بقرار منه وليس بطلبي، حدث بعدما انتهك جسدي حتى فقدت بريق الأنثى الذي طالما زهوتُ به، حدث وعدتُ إلى دار أبي، بملامح مختلفة عن تلك التي خرجتُ بها.

لم نخبر صادق بما حدث، فقط سطر وحيد في برقية عاجلة:

"كل أمر اللَّه خير، أختك طُلِّقت وعادت إلى دارنا".

لم أجرؤ على البَوْح بما يدور داخلي، ولم أحْكِ عما حدث في دار طليقي، ولكن معاناتي لم تنتهِ بالعودة إلى دارنا، ازدادت المحظورات وأغلق أبي شباك غرفتي بالخشب والمسامير ومُنِعت من الخروج وحدي، وحتى الخروج مع أمي كان في أضيق الحدود.

حتى صديقاتي القدامى لم يعُدن يزُرْنَني خوفًا من اقتران أسمائهن باسمي بعدما اقترن به لفظ المطلقة، ليذكِّرني بأنني لم أعُدْ أمتلك نفس حقوق الإناث في بلدتنا.

تجلس أمي معي بالساعات ولا أحكي لها شيئًا، تتحدث ولا أنطق، لم يَعُد أبي يقرأ جوابات صادق أمامنا، فقط يخبرنا أنه بخير وأنه أرسل الحوالة وأن حُلْم الأرض بات قريبًا، أترقَّب عودة صادق فربما أجد في عودته الملاذ لما يحدث لي.

دفنتُ أسراري في قاع صندوقي بجوار عِقْد الصفصاف الذابل، أُغلق بابي بالساعات وأجلس وحيدةً أُخرج العقد وأرتديه على جسدٍ عارٍ لم يَعُد يأسرني بأنوثته التي طالما حكى بها الناس، ضاعت وسط كدمات زرقاء وخطوط صنعها سوط جلاد متلذذ برسمها على بشرة بيضاء تخترقها سيجارته، لتزيد نشوته وإحساسه بامتلاكي وحده فتعالجه من إحساس النقص بمشاركة خضر امتلاكه لي.

كتب أبي ما تبقَّى من حياتي كما كتب سابقًا ما حدث، كتب قصتي حتى مماتي، ولكن الموت ليس اختيارًا، الموت صعب، فشلت في الوصول له عندما أردتُه، وسيفشل أبي في صنعه مهما أغلق أبواب وشبابيك الدار.

أخبرتني أمي بأن عمي إبراهيم جاء إلى أبي طالبًا الصفح والصلح، ولكنه رفض، كانت تراقب وجهي لترى ماذا سترسمه كلماتها، ولكني لم أُبدِ أي اهتمام. وافق أو رفض وما الفارق؟ هل سيجمعني بيت مع خضر؟ هل ستبتسم الحياة؟ لم نعُد نصلح للزواج، أتمنى أن يبقى حبنا مثلما انتهى أن يستمر في أحلامنا وخيالنا، قتلونا ونحن على قيد الحياة وأصبحت جنَّتنا أن نحب بعضنا ونحن موتى، حب لن يستطيعوا محوَه ولقاء لن يستطيعوا منعه، وحياة لن يفرقونا فيها أبدًا.

***

زينب

ولكن عزيزة ليست مثلي، أغاني عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش نسجت بداخلها حريرًا ناعمًا يُضمِّد جراح قلبها ويدفئ مشاعرها، أو ربما كان حبها أقوى.

كنت أحاول مواساتها دومًا، ولكنها لم تتقبل، تُحمِّلني وزر مشاركتهم الذنب رغم قلَّة حيلتي، أنا أعلم ما بها، ولكن هل أجرؤ على رفع عيني في عين محمد المصري؟

جلستُ كثيرًا بجوارها أحاول التهوين عنها، ولا أحد يعلم أني أحاول التهوين عن نفسي في صورتها، كنتُ حزينة على حالها ولكنَّ جزءًا ما داخلي كان سعيدًا بعودتها، سعيدًا بأنها لم تكمل حياتها مرغمة ومغصوبة، ربما سينصفها القدر يومًا ما أو ربما تبقى معي تؤنسني وتُذكِّرني دومًا بأنها كانت أشجع مني في الرفض. قصتي ستموت وقصة عزيزة وخضر سيرددها المنشدون في قريتنا، سيتحدثون عن خضر الذي جنَّنه الحب وسلب عقله وعزيزة التي لم تحتمل الزواج من غيره فوصمت نفسها بعار الطلاق. فضَّلت

أن تعيش في غرفتها التي أُغلقت نافذتها بالخشب والمسامير بدلًا من بيت كبير مفتوح. أنا أشعر بها وأعلم أن البيت الكبير كان سجنًا بينما تعيش داخل الغرفة المغلقة الصغيرة حياتها المُتخيَّلة مع خضر فتراها بحجم العالم كله، أنا سبقتها وعشت في دار كبيرة سجنت فيها أحلامي ومشاعري، أذكر يومًا جاءت لي عزيزة تحمل بين يديها عِقْدًا مصنوعًا من أفرع الصفصاف لتسألني عن الحب. أجلستها أمامي وداعبت شعرها لأصنع منه الضفائر التي كانت تزيدها جمالًا، بينما أتنهد لأخبرها أن الحب هو أن تجمعنا الحياة بالحبيب فلا نرى في الوجود غيره، لم أفهم يومها اختلاج صدرها وتوترها بينما تسأل بخوف وماذا لو لم يجتمعا وفرقتهما الظروف؟ كانت إجابتي تحمل ما يدور داخلي، الفراق يعني أن لا حياة يمكن أن يعيشها أحدهما، الفراق يقتل، الفراق يسحب الأنفاس، الفراق يوقف دقات القلب، ارتبطت الحياة بوجودهما معًا فإذا افترقا لن تنقسم الحياة بينهما ولن يصبح لكل منهما حياته، بالفراق ستنتهي الحياة.

لم أفهم يا عزيزة ولم أَعِ وقتها أن الفكرة التي زرعتها بداخل تلك البنت الصغيرة ذات الضفائر، ستطاردها حتى تجلس في غرفتها تعاني آلامها وحيدة، خطفتها غربتها عن الدار كما خطفت ولدي وسندي صادق، أنا أُمٌّ لولدٍ وبنتٍ يعيشان خارج حياتي.

أمومتي منقوصة بمشاهد من حياة أبنائي كان لي كل الحق أن أراها وأعيشها وسُلبت مني قهرًا، ربما تكون سُنة الحياة، أمهات كُثْر مثلي ينتهي بهن العمر في وحدة بينما للأبناء حياتهم الخاصة، ولكن يعزيهن دومًا أنهن

كُنَّ سببًا في وضعهم على طريق السعادة، يعزيهن الشعور الدائم بأنهن سيكُنَّ موجوداتٍ وقت الحاجة، ولكن ما الحياة لو لم يكن من حقي رؤيتهما متى شئت؟!

أتساءل في وحدتي لماذا لم نكمل الطريق معًا، رأيت ميلادهما خروجهما للحياة ترقبت المرَّة الأولى التي ستتفتح فيها أعينهما لرؤية الدنيا، محاولات النطق باسمي وأصوات الضحكات، محاولات السير وقوعهما أرضًا ثم وقوفهما صامدين للمواصلة كنت أساعدهما للمواصلة. رأيتهما يكبران ثم توقف المشهد رغمًا عني، حُرمت من الاستمتاع بلذة الأمومة عند ذلك الحد.

أتعمَّد إخفاء سنواتهما الأولى من حكاياتي مع محمد، أتعمد دومًا أن أجعله يشعر بنقص أبوَّته وجهله كيف كانا يكبران في بُعده، ربما يتألم لذاك الإحساس فيشعر بما أمرُّ به ويعيدهما لحضني، ربما يصل إليه إحساسي فيساعدهما ويلمُّ شملنا مرةً أخرى.

لم أعُدْ أعرف شيئًا عن أخبار صادق، ولكن إحساسي يُنبئني أنه ليس بخير، وإحساسي لم يكذب أبدًا.

أعِدْه لي يا محمد، ولكن أعده بخير لا أريده أن يعود كما عادت عزيزة مكسورًا أو حزينًا.

أصبحت كل آمالي وأحلامي أن أرى صادق وأن تعود لعزيزة بهجتها وضحكتها.

لا أعلم بماذا سأدعو اللَّه في صلواتي، هل أطلب منه أن يجمعنا معًا بأي

شكل وأي حال؟ أم أطلب منه أن يحققا أمانيهما فيستمر صادق في غربته بحثًا عن أرضٍ يحقق بها حُلْم أبيه، وتتزوج عزيزة من رجلٍ فقدَ عقله.

***

الفصل الثالث

أكتوبر – 1987
بغداد – العراق
مُرسَل إلى: قرية (ونس النيل/ دقهلية)
يُسلم ليد/ محمد محفوظ المصري
بمنزله الكائن بنواحي البحر – شارع القصر

والدي الغالي

أُرسل إليك التحية والسلام، وبدايةً فأنا أطلب منك السماح لتأخُّري في إرسال الخطابات، فأنت تعلم مشاغل الحياة..

أما بعد،

بلغني طلاق عزيزة، وأحزنني كثيرًا ولا أعلم هل أواسيك أم أشكر اللَّه فكل أمره خيرٌ كما قلت، وأنا كنت متوقعًا طلاقها يا والدي منذ الزفاف، لم أرَ الفرحة في عينيها مثل بقية العرائس، لم أرَ لهفتها على الزواج مثل من هُنَّ في عمرها، كانت الفرحة في عينيها عزيزة وأنا أكثر من يميز الحزن في عينَيْ عزيزة، لا تتعجب فهي رفيقتي منذ فتحت عيني على الدنيا ورأيتها تنظر لي بترقُّب وفرح لذا فأنا أوصيك بها خيرًا يا أبي، لا تقسُ عليها

كما قست الدنيا، ولا تشغل نفسك بكلام الناس ولا عيونهم فنحن نعرف ابنتنا ونثق في تربيتها وحُسن أخلاقها.

كُنْ لها السند يا أبي، كُنْ لها أبًا وأخًا وحبيبًا فليتني كنت جوارها في تلك الأيام فأحاول التخفيف عنها وتهوين المرارة التي تشعر بها، بلِّغها مني السلام وأخبرها إنني أشعر بها وسأعود من أجلها.

وأخبرني عن أمي يا أبي، كيف حالها وكيف استقبلت خبر طلاق عزيزة، دعوت إلى اللَّه ألَّا يؤثر عليها الحزن فأنا أعلم أن أمي تحمل من رقة المشاعر ما يجعلها دومًا تُكثر التفكير وتتألم لأقل الأحداث، يكفيها غربتي وبُعدي عنها، أخبرها دومًا أنني بخير وأسألُ عنها، وأخبرها أنني اقتربت من العودة فالأيام تمضي سريعًا والحلم قارَب على التحقُّق وسأعود لأتزوج وأُنجب وأملأ الدار لها أحفادًا يشغلون أيامها ويخدمونها، هوِّن عليها غربتي يا أبي.

وعن أخباري فأنا بخير حال، انتقلت من سكن الشباب إلى سكن آخر مع رجل طيب مُسنّ اسمه عَمْ كاظم، اتخذني ابنًا له ولم يُغنني ذلك عن قربك يا أبي، الأحوال تسوء هنا، يقولون إن الحرب قد أوشكت على نهايتها وبدأ الرجال في العودة إلى ديارهم، عادوا إلى المدنية ولكن حياة الحرب لم تتركهم، عادوا بلا عمل فضاق بهم الحال، نزلوا إلى الأسواق فلم يجدوا لهم مكانًا بيننا، زادت المشاكل بيننا فالحرب غيَّرتهم حتى أصبحت الأيدي تتكلم أكثر من الألسنة، ساد العنف وتغيرت القوانين ولكن الرئيس صدام حسين دائمًا ما يدافع عنَّا ويعطينا حقوقًا أكثر مما نستحق، القانون في صفِّنا ويحمينا ولكن هذا الأمر زادهم جنونًا وحقدًا على تواجدنا، يجلسون في

منازلهم لا يجدون قُوتَ يومهم بينما يروننا ونحن نعمل ونكسب ونرسل الأموال خارج بلادهم، وسأُسرُّ لك يا أبي، بعض منَّا كان يستغل ذلك في عمل كل ما هو مُشِين.

منصور ابن الحاج سليم أخبرنا أنه تزوج من امرأة عراقية واكتشفنا فيما بعد أنها كانت متزوجة من رجل بالحرب وادَّعت وفاته حتى عاد، هرب منصور وتركها ويقولون إنه سرق أموالًا من عمله قبل اختفائه، أما المرأة فقد حاول زوجها السابق قتلها فهربت هي الأخرى.

يوجد الكثير مثلهما ممَّن استغلوا عدم وجود الرجال في عمل علاقات غير شرعية، أساءت إلى سُمعتنا كمصريين وزادت الاحتقان فيما بيننا وبين الشعب الطيب الذي احتضننا، يفعلون فعلتهم الشنيعة ثم يهربون إلى مدينة أخرى، مستغلين قانون عدم محاكمتهم ويرتكبون جرائم أخرى ثم ينتقلون من جديد.

ولكن لا تقلق يا والدي الغالي فأنا بعيد كل البُعد عن ذلك، أعيش في كنف هذا الرجل الطيب الذي فقد أبناءه في الحرب، وأنقل خير صورة عن بلدي ليدعو الناس لك ولجدي على حُسن تربيتي.

وأخيرًا، فإنه وبسبب سوء الأحوال التي أخبرتك عنها صدرت عدة قرارات بإيقاف الحوالات المالية خارج العراق، ولكن هناك من وجد حلًّا لها، في موعد الحوالة سيأتي إليك رجلٌ من طرفي يقوم بتسليمك ظرفًا به المبلغ المتفق عليه، تأكد جيدًا من عَدِّه قبل أن يغادر فهناك طرق أخبرني عنها بعض الزملاء هنا لإخراج الأموال، وسنستمر في ذلك حتى يقضي اللَّـه أمرًا كان مفعولًا.

وفي الختام، أرسل أشواقي وقبلاتي لك ولأمي ولعزيزة..

حفظكم اللَّـه، وجمعنا في خير..

ولدك المخلص/ صادق المصري

***

صادق

على عكس كل خطاباتي السابقة كتبتُ تلك الرسالة جالسًا على المقهى، كنت أريد أن أشعر بصخب الشارع أن أستمدَّ قوتي من ضجيج الناس حولي، أن أحتمي بتداخل الأصوات من وحدتي.

لم تكُن الوحدة تزعجني فيما مضى من عمري، أعرف ألف شخص، ولكني بلا صديق. اعتدتُ الجلوس وحيدًا، ناجيتُ كل شيء حولي، عصا جدي، وكتابًا مُصفرَّة أوراقه، وقُصاصات من جريدة تتحدث عن الحرب، وأوراقًا ذابلة لشجرةٍ أسقطتها رياح الخريف، والمراكب التي كانت تمر أمامي مداعبة صفحة النيل. ناجيتها دون أن يشعر ركابها، ناجيت الكتب الملقاة أمامي على رصيف شارع المتنبي وناجيت قميصي الذي دومًا ما كنت أفشل في طيِّه، اعتدتُ وحدتي ولكنها تلك المرة كانت مزعجة وكأنها المرة الأولى التي أجلس وأفكر، لأكتشف أنني لا أمتلك شخصًا واحدًا يمكنني أن أُسِرّ له بما يساورني، شخص واحد يمكن أن أترك دموعي تنساب أمامه وأنا أتوسل إلى الأيام أن تُنهي غربتي وتعيدني إلى حضن أمي،

أن ألعن أمامه حُلْم أبي بامتلاك أرض أو قسوته على عزيزة وخضر بسبب ثأر وقَبليَّة مقيتة، أن ألعن أوزارًا حملتها منذ أن كنت طفلًا حتى جلست وحيدًا أنعي همومي على أوراق لا تتعاطف مع أنيني، ولا تشغلها دمعة انسابت وسقطت عليها لتشربها وتطلب المزيد.

كتبت رسالتي وعيون عزيزة تطاردني وخضر ما زال يضحك ويتباهى بأشعاره.

واستمرت الأيام في مُضيِّها وكأن روتيني قد أصبح محفورًا مع علامات الساعة لا يتغير ويتكرر دون ملل، كنت أمضي وفقط.

أضحك وألهو وأتحدث إلى الجميع، أبيع الكتب وأقرؤها وأتبادل النِّكات وتنكسر ضحكتي بشرود عيني رغم سماعي إطراءات عن خفَّة الدم المصري، لا أحد يعلم ما يدور بداخلي، لا أحد أبدًا ولا حتى عَمّ كاظم المسكين الذي حاول كثيرًا تغيير مسحة الحزن التي طاردت ابتساماتي.

أصبحت أتوقع الغدر في كل لحظة، نسمع عن صراعات العراقيين مع المغتربين، وكرههم للمصريين ممَّن احتلوا أحياءهم ليسرقوا منهم أي فرصة قد تلوح لأكل العيش.

لم يكُن تحفُّزهم مُستغربًا، قضوا سنواتٍ من عمرهم في حرب وحياة قاسية غيرت طباعهم وسلوكهم وأسلوبهم في الحياة وتقبُّل مشكلاتها. وعادوا فلم تحتضنهم بلادهم التي ظنوا أن دفاعهم عنها سيمنحهم صكوكًا من الرخاء لقضاء ما تبقَّى من أعمارهم، ولكنهم وجدوا ضيق حال وفقرًا وقَمعًا وحزامًا مشدودًا على البطون من تَبِعات الحرب ورئيسًا يدافع عن

جرائم المغتربين ويؤجل حسابهم، فيمنحهم الدافع للاستمرار في جرائمهم وانتهازيتهم.

مَن الظالم ومَن المظلوم؟

قبل هروب منصور تحدثت معه لائمًا وطلبت منه أن يعتدل في سلوكه، ضحك وقال:

– منعونا من تحويل أموالنا، سرقوا شقانا وتعبنا وتريدنا أن نعيش معهم في سلام؟! حقي سآخذه بذراعي، والقانون يحميني.

بعدها بأسابيع قليلة تناثرت إشاعات بين المصريين أنهم وجدوا جثمانه ممزقًا ومُلقى بإحدى الطرقات وسلَّموه للسفارة لتعيده إلى مصر، ولكن الخبر لم يكن مؤكَّدًا فلم يشغلني كثيرًا أو هكذا حاولت أن أقنع نفسي.

وصلني ردُّ أبي على رسالتي الأخيرة، أمسكتها وهربت إلى خلوتي وفضضتُ الظرف، كنتُ أتحرَّق شوقًا لمعرفة ما به، أن أعرف رأيه فيما يحدث وأستمع لحديثه عن عزيزة وحالها، وتمنيت أن أجد بداخله وعدًا منه بالكَفِّ عن قسوته معها ومنحها ما تريد من حرية، وربما يمكنني أن أشمَّ رائحة أمي بين سطوره.

أمضيت دقائق ممسكًا بالورقة المطوية دون أن أفتحها ثم أعدتُها مرةً أخرى داخل الظرف.

خِفْتُ.

أجبرتني دقات قلبي على إعادتها..

هربت إلى الشارع تقودني قدماي المسرعة إلى ضفاف دجلة، كنت أبحث عن شجرة جميز عجوز بأفرع قوية تحتضنني، ولكني لم أجدها،

لماذا خفت يا صادق؟!

من وعود خشيت عدم وجودها؟

من أخبار سيئة عن حُلْمٍ ربما لن يتحقق بسبب خلَل التحويلات واضطراب تدفق الأقساط؟

من كلمات قاسية تقتل بلا دماء؟!

في تلك الليلة قررتُ أنني لن أقرأ خطابات أبي بعد الآن، ولن أرسل الخطابات.

في تلك الليلة أزلتُ ثقلًا عن كاهلي، ثقلًا لم أَكُن أعلم بوجوده من قبل ولم أشعر بمدى ألمه إلا بعد إزالته، حتى إنني تعجبت كيف أمضيتُ عمري حاملًا له.. لم أَكُن أعلم له سببًا.

سأستمر في إرسال الأموال عبر المهربين وسيتكفلون هم بتوصيلها حتى باب الدار، وسأقوم وحدي بحساب المبالغ والأقساط المدفوعة والمتبقية حتى تنتهي، ووقتَها سأتخذ القرار ربما بالعودة أو البقاء.

ربما أستمرُّ في غربتي ووحدتي لأصنع هدفًا أو أحلم حُلْمًا لا أشارك أحدًا به، يخصني وحدي أحققه لأجلي في حياة أختارها بنفسي دون وصاية أو ظروف مُجبِرة.

عندما سيأخذني شوقي إليهم سأُخرج خطابًا قديمًا وأقرؤه، خطابًا من أيام الغربة الأولى كانت الأشواق تميزه وكلماته تحمل رائحة دارنا، سأردد اسم أمي مائة مرة ثم أغفو لأراها في حُلم يقربنا ويتجاهل آلاف الأميال التي تفصلنا.

اعتادوا الحياة دون وجودي.. وسأعطيهم ما أرادوا..

أرادوا لي الوحدة.. لذا سأعيش وحيدًا..

ولن تتوقف الحياة..

نوفمبر – 1987
قرية (ونس النيل/ دقهلية)
يُسلم ليد/ صادق محمد المصري
بمقر عمله – العراق – بغداد – شارع المتنبي – مكتبة الفرات

ولدي العزيز/ صادق

لم أستطع أن أغفر لك تأخُّرك في إرسال الخطابات، هل قسا قلبك على أبيك يا صادق؟! أم أخذتك الحياة؟ وكلا الأمرين يزعجني..

لم أجد مبررًا ولم يمنحني عقلي ردًّا مقنعًا ولم أهتدِ إلى جواب امنحه لأمك عندما تسألني عنك، كل مرة أخدعها وأقنعها بأنك بخير ومستمر في إرسال رسائلك، وترفض عباراتي الكذب فتكشفني نبرة صوتي أمامها، تصمت وهي تدرك أني أكذب فأخفض عيني وأنا أعلم أنها كشفتني.

يا صادق أفزعني ما كتبت عن أحوال العراق، سمعت في نشرة أخبار التاسعة أن الحرب انتهت وأن الأوامر صدرت بوقف إطلاق النار ففرحت، أليس ذلك خيرًا للبلاد والعباد؟! ولكن كلماتك أفزعتني ولم أفهم لماذا ساءت الأحوال؟!

يا ولدي الأرزاق على اللَّه يمنح كل عبد رزقه فأخبرني صدقًا يا صادق هل تأثر عملك وهل تعاني في الغربة؟ الحوالة تصلني في وقتها كما قلت وأذهب إلى المحامي أعطيه القسط كما اتفقنا، ولكن إذا كان الثمن هو أن تعيش في خطر فارجع يا صادق ولنكتفِ بالقيراطين نزرعهم ونعيش.

أخبرني صدقًا يا صادق هل لك أي علاقة بتلك الجرائم التي أخبرتني بها؟! ابتعد عن ابن سليم ولا تشغل نفسك بأحواله وإذا حكمت الأمور فأنكر معرفتك به وعِشٍ في سلام، وابتعد عن أصدقاء السوء فهم كنافخ الكير يا ولدي فلا تستمع إلى تحريض شياطين الإنس وعِشْ بما وجدت عليه آباءَك وأجدادك من خير وسلام، ولا تخذلني يا صادق.

أتمنى أن تصلك رسالتي فتجدك بخير، وأنتظر ردَّك على أحَرِّ من الجمر فلا تجعل نيران القلق تأكل قلبي يا ولدي.

والدك/ محمد محفوظ المصري

***

محمد المصري

أحصيتُ الأيام منذ أرسلتُ آخر جواب وجلست أنتظر الرد في الموعد الذي اعتدت عليه، بالأعوام السابقة التي كنت أتبادل فيها الرسائل مع صادق، ولكن لم يصلني الرد.

كنت أتعجَّب لماذا لم يردَّ ولماذا تأخر على الرغم من توسلاتي في آخر جواب، لولا وصول المال في موعده لظننتُ سوءًا لا أتمناه، ولكن باقي الظنون كادت أن تفتك بعقلي.

زدت عشرة أيام على الموعد المحتمل لوصول الرسالة فلم أجد للصبر سبيلًا، تركت مصطبتي وجلستي المعتادة بعد صلاة العشاء وذهبت إلى منزل البوسطجي علَّني أجد ردًّا يطفئ لهيب الفكر الذي يأسرني ولا يفارقني، ولكن الرد زادني اضطرابًا.

ألم تصله الرسالة؟ هل أرسل غيرها؟ وإذا لم تصل لماذا لم تعُد لي كما المعتاد فالعنوان على ظهر الظرف؟

لم أعُدْ إلى الدار وأخذتني قدماي إلى دار أبي، عندما وصلت ووقفت أتأمل المصطبة الخالية انتبهتُ للمكان، ولكني لم أتعجب كيف وصلتُ إليه. كانت تلك المصطبة هي ملاذي الدائم، حينما تساورني الشكوك أجد يقيني عليها متمثلًا في كلماتِ شيخٍ كفيف.

طرقتُ باب الدار حتى أجعل لمشواري إلى ذلك المكان معنى، خرج أبو منصور مُرحِّبًا وافترشنا المصطبة لنتسامر، فسألته عن أحوال منصور ومتى كانت آخر مرة تواصَل معه؟

لم يكُن قَلِقًا، لا يعرف شيئًا عن ولده، ولكنه لم يكن قلقًا، كانت لديه أشياء أهم ولم يكن لديَّ أهم من ولدي، فأخبرته أن جوابات صادق تأخرت، أبلغته أن الأحوال في العراق ليست مستقرة.

ابتسم قائلًا:

– ومنذ متى كانت الأوضاع مستقرة في العراق أو غيرها؟!

ثم همس سائلًا:

– ألا تصلك الأموال؟ أخبرني كَمْ تبقَّى من قسط الأرض؟

لم أُجِبْه، تركته لفضوله ولاهتماماته الأخرى، وتركت معها كوب الشاي ورحلت.

كنتُ أعي قبلًا أن علاقتي بصادق تختلف، كنتُ دائم الخوف على أبنائي منذ صِغَرهم وبعد عودتي، كان الناس يتعجبون لذلك وكثيرًا ما سمعت من الجيران والأقارب قولهم: ولادك كبروا يا محمد، اتركهم لدنياهم.

أضحك على الدنيا..

عندما كان الأمر بيدي تركتهم ورحلت وغابت عني أخبارهم ولم تشغلني، ولكن الهدف كان أسمَى وكنتُ على يقين أنهم بخير في حفظ اللَّـه، كانوا صغارًا تكفيهم رعاية الشيخ محفوظ وعمهم إبراهيم، ونخوة ومروءة أهل البلد نظيرًا وثمنًا لواجبي المقدس.

أما الأيام التي دارت وأخذتهم مني فلا مبرر لها.

ابنة شاردة الذهن لا تتحدث مشغولٌ عقلُها وتفكيرُها في مخبول أحبته وسلبه الحب عقله فأخذه الجنون من الحياة ولا أحد يدري ما الحلُّ لإعادتها إلينا، اشتقت إليها وإلى مرحها وحتى جدران الدار اشتاقت إلى صوت ضحكتها لتبثَّ صداه في كل الأرجاء.

ولد غائب يكتفي بإرسال الأموال ويظن أنها ستُغنينا عنه، أو أنني غير مشغول بحاله وأسعى وحدي خلف حُلم امتلاك لا يخصُّ غيري.

كبرت وبات الموت قريبًا، أشتمُّ رائحته كل ليلة قبل الخلود إلى النوم، وعندما أستيقظ في الصباح أتحسَّس جسدي لأتأكَّد أنني لا زلت على قيد الحياة، فأشكر اللَّـه أن منحني يومًا جديدًا وفرصة إضافية لتحقيق حُلم الأرض التي ستجعلني أرقد في سلام حينما يحين موعدي، مطمئنًا بأنها ستكون أمانهم والسبيل لراحتهم من ألم الجوع والشقاء.

تكالبت الدنيا بكل ما فيها عليَّ..

زوجة أصبحت تهملني ولا تشغلها راحتي وتظن أنها تؤدي واجبها

بإطعامي وترتيب فرشتي ومساعدتي في الحقل وتربية الماشية، ولا تعي بأني أحتاج منها إلى نفسٍ أسكن إليها وروح تؤنسني وتحمل عني همومًا لحياة قاسية تزيدني ألـمًا كل يوم.

تعاقبني زينب بذنب عيالها في كل لحظة بأسئلةٍ لا أملك لها إجاباتٍ وتتركني وحيدًا في مواجهة نظرات عزيزة اللائمة، على الرغم من محاولتي تغييرها بفتح النوافذ وترك الحبل على الغارب لتدخل وتخرج كلما أرادت، متجاوزًا ما أسمعه من تلميحات عن طلاقها وعارها.

أحتاجُ إليك يا صادق...

أحتاج أن تمنحني الطمأنينة بأن سندي في تلك الدنيا لا زال موجودًا إلى جواري قائمًا يمكنني الاتكاء عليه في لحظات ضعفي.

هو ذنب أبي الذي رحلتُ وتركتُه يموت وحيدًا عاجزًا وتأبى قدماي إلَّا أن تُذكِّراني دومًا به كلما احتجت إلى السَّنَد، فتأخذانني إلى مصطبته – حيث كان ينتظرني – لا إلى قبره الذي سكنه في غيابي.

مات إبراهيم..

أخذه الحزن ولم ينفعه مالٌ ولا بنون، ولا أطيانه التي كنزها وأبَى أن يجود عليَّ بحقي فيها من أجل الصفح عن ولده، فأنكر امتلاكها وخدعني عندما أوهمني أنه باعها.

أخبرني كبار البلد بموته، فرفضتُ الاستماع لما يقولون وأقسمت ألَّا يُدفن بقبر أبي ولم آبَه لتأنيبهم ولا لومهم لدفنه في مقابر الصدقة، لم أَكُن

قاسيًا أبدًا ولكن إبراهيم كان يستحق قسوتي وعدم غفراني. وكيف أغفر له وأنا اختصمته أمام اللَّـه يوم تُؤتَى كل نفس سؤلها، حمَّلتُه كل الخطايا التي أجبرتني على الوصول إلى ما آل إليه حالي، كرجل يعيش فاقدًا لحياته وسط أهل بيت لا يأبهون لوجوده.

ذهبت إلى قبره متلصصًا في المساء بعد أن انصرف المُشيِّعون، ثم سألته عن اللَّـه وملائكته وما فعلوه به وبماذا أجابهم عندما سألوه تلك الأسئلة التي أمضى عمره هربًا منها.

ورث خضر أباه، وأصبحت أرض محفوظ المصري ملكًا لَمَوْتُور لا يعي ولا يفقه شيئًا فلن تجد من يرعاها، لن أذهب إلى المحكمة وأخبرهم أني وَليُّه الشرعي لأخذ الأرض وأرعاه في المقابل، لن أدخل في صراعات مع أمه وأخواله لأجد رعايته طوقًا في رقبتي أمام اللَّـه وأمام نفسي وأمام الناس، سأترك له الأرض وحتمًا ستبور وتنتهي كما انتهت العائلة.

عزيزة

كدَوِيّ انفجار شعرتُ بقوته منطلقًا من وجهي أطاح بي أرضًا ليعمَّ ظلام دامس أمام عيني وينتشلني من مكان سقوطي بجوار مصطبة دارنا ليُلقي بي إلى أعماق النيل، فيهبط جسدي لأعماقه ويدفعني الماء المحيط بجسدي إلى الموت. تُمرَّ من أمام عينَي المغلقتين مئات المشاهد السابقة لماضٍ عشته ما بين بهجة وألم، نفس إحساس الغرق أعرفه حين انزلقت قدمي بينما ألهو مع صادق وخضر بجوار أرضنا على ضفة النهر، ولكني أذكر جيدًا أنني كنت أقاوم الموت بكلتا يدَيَّ فأحاول التشبُّث بأي شيء ربما يعيدني إلى الحياة. تلك المرة سقطت مثل جثة هامدة لم تُمنح الوقت الكافي لتطلب النجاة، ربما لأن اليد التي غاصت خلفها وانتشلتها في المرة الأولى كانت نفس اليد التي تسببت في سقوطها الآن.

كانت صفعة أبي قوية ومفاجئة أفقتُ منها على صوت أمي بينما تحاول سحبي إلى داخل الدار، لتحميَني من بطش أبي الذي استمر بعد الصفعة مع تمتماتٍ بكلماتٍ لم تدركها أمي أثناء لهفتها على إنقاذي.

لا أعلم كيف وجدت نفسي داخل الدار، ولكني هرولت إلى غرفة الضيوف لأحتمي بركنها، فتصنع جدرانها مع ركبتَيَّ المضمومتين بين يدَيَّ ما يحميني ويمنحني بعض الأمان من هجمة جديدة محتملة، كانت أمي لا زالت تصرخ وكنت أستطيع سماع صوتها عبر الباب المكسور، الذي لم يُغلق منذ حاول أبي إغلاقه ليهرب من إزعاجنا بعد عودته من حربه.

سألته:

– ما الذي حدث يا أبا صادق؟ وما الذي يستحق أن يجعلك تضرب ابنتك بالشارع أمام الناس؟

لم أرَ وجه أبي، ولكن نبرات صوته القاسية أكَّدت لي احمرار جبينه غضبًا بينما يجيبها:

– تلك السافلة طلبت مني أن أزوِّجها خضر ثم أستعيد الأرض ودار عمها.

كنت أراه حلًّا مثاليًّا وسبيلًا لعودة الحق وعودة أخي سريعًا من غربته بعد أن يمتلك أبي الأرض التي طالما أرادها، كان حلًّا يريده قلبي ولم تشغلني الأرض ولا الدار ولكني أيضًا كنت أملك حقًّا في خضر وحُلمًا أريد تحقيقه. كُلٌّ منا يبحث عن حُلمه وكُلٌّ منا من حقه أن يجد السبيل ليحقق ما يريد، لا أعلم ما الذي أغضبه لهذا الحد ليصفعني للمرة الأولى في حياتي.

كثيرًا ما سمعت الحكايات من خليلاتي ونساء قريتنا عن ضرب آبائهن

وإخوانهن لهن، تلك الحكايات التي جعلتني دومًا أخشى بطشهم رغم إيماني الشديد بأنني أختلف وعائلتنا تختلف.

إيمان لم يدنسه ضرب طليقي لي عندما تحمَّلته لأني كنتُ موصومة بالعار، وفضيحة خشيت حدوثها إذا تحدَّث عمَّا دار بيننا وما حدث مني.

لم يكُن من دمي ولم يُربِّني ولم يُدلِّلني، لم يمنحني الحرية ولم تشغله سعادتي كما فعل أبي ومن بعده جدي وأخي.

ضربات زوجي الكثيرة وجَلْده وتلك العلامات التي لوَّثت نقاء جسدي لم تؤلمني، ولكن صفعة أبي كانت مؤلمة وقوية.

مؤلمة للدرجة التي ستُبقي ذاك الألم على وجهي ما حييت تاركةً وجعًا بقلبي لن ينمحي..

وقوية حتى إنها شطرت حياتي إلى نصفين ما قبلها وبعدها..

حتى أبي أدرك ذلك من نظرات التحدِّي التي لم تفارقني مع عودتي لغرفتي يومها والمستمرة حتى اللحظة.

كان ينتظر مني اعتذارًا بينما الحقيقة هي أنني مَن كنتُ أترقب اعتذاره، كلانا كان ينظر من جهته إلى الآخر وينتظر اقترابًا لن يحدث.

قررت الذهاب إلى خضر ورؤيته، لم أعُدْ أخشى بطش أبي. عشت ما سبق من عمري أخشى تلك الصفعة حتى حدثت فلن أخشى شيئًا بعدها، تمنيت لو أنه صفعني يوم أن دخل إليه خضر وطلبني، فلربما وقتها كنتُ سأعرف – على صِغَر عمري – أن لا شيء في تلك الحياة يُرعب أكثر من فراق الأحبَّة.

أخرجت العقد الذابل من صندوقي وارتديته ثم انتظرت خروج أبي لصلاة المغرب، ما يمنحني وقتًا كافيًا لما بعد صلاة العشاء، وغافلت أمي المشغولة دائمًا مع طيورها وعملها بين الحظيرة والدار والفرن ثم خرجت. قطعت الطريق إلى دار عمي في ألف عام مما تحصون، وعندما وصلت وجدت الباب مفتوحًا فلم يمنعني شيءٌ من الدخول.

كان خضر يجلس وحيدًا في صحن الدار، بلا أبٍ بلا أُمٍّ بلا راعٍ... بلا حب..

وحيدًا مثلي... وحيدًا مثل صادق في غربته، وحيدًا في دنيا قادتنا جميعًا في طرق مختلفة وكأنها أبَتْ أن نلتقي..

جلستُ إلى جواره وحدثته كثيرًا، لم يُبالِ!

سألته مائة مرة هل يسمعني؟ سألته عن حاله؟ ماذا يأكل؟ ماذا يشرب؟ أريتُه العقد وسألته هل يذكره؟

خشيت أن أسأله هل يعرفني؟

خشيت أن يقتلني صمته، أن يقتلني جهله، توقفت عن الأسئلة وجلست صامتةً ما تبقَّى من الوقت حتى سمعت أذان العشاء فكان الرحيل واجبًا.

وعدتُه أني سأعود لأجله..

قبل أن تعبُر أقدامي بابه ناداني باسمي فاختلج صدري بدقَّاتٍ كادت تنزع قلبي من مسكنه...

نظرت إليه فسألني بكلمات متقطعة فهمتها بالكاد:

- هل حقًّا ستعودين من أجلي؟

عدتُ إليه، ومسحت على جبينه، ثم قلتُ له بدموعي:

- سأعود.

زينب

"اكسر للبنت ضلعًا يطلع لها أربعة وعشرون".

كثيرًا ما نصحت محمدًا أن يقسوَ على عزيزة قليلا... البنات المُدلَّلة تفسَد، دلع البنات في النهاية يجلب العار لأهلها، لم أرَ من قبل بنتًا ترد على أبيها أو تجادل أخاها، لم أسمع عن بنت اختارت زوجها أو رفضته أو تعاملت مع أهله بسوء، ندفع جميعًا الآن ثمن تدليل عزيزة، هذا ما تربينا عليه وما أمضينا حياتنا نعرفه، وتلك القسوة وذاك الخوف الدائمان هما ما جعلانا نحيا في سلام ونعيش حياتنا راضين وسعداء في بيوت أهلنا وبيوت أزواجنا من بعدها.

كنت غاضبة ومنزعجة وأنا أصرخ في محمد بذاك الحديث بينما عزيزة تبكي في غرفة الضيوف وتستمتع إلينا، تعمَّدتُ أن أرفع صوتي حتى تعلم أنني لست راضية عن أفعالها ولا عن حالها.

كثيرًا ما جلست معها وطلبت منها أن تعيد التفكير في حياتها وفيما تفعل،

أن تعقل وتعود عزيزة التي نعرفها ونحبها وأن تكمل حياتها كما نريدها.

ولكني عندما أختلي بنفسي كان دائمًا ما يراودني هذا السؤال...

لماذا؟!

لماذا أطلب منها أن تعيش الحياة التي نريدها؟!

لماذا لا أستطيع أن أطلب منها أن تعيش الحياة التي تريدها هي؟!

كان صوتي العالي دليلًا على ضعفي وقلة حيلتي، وكأنني أمنح نفسي مبررًا لعدم سعادتي بمحاولة تلقين نفسي ما يمنحني إجابات تلك الأسئلة التي لم أعرف لها أبدًا إجابات.

لا لم أَكُن سعيدة، ولم تكُن حياتي ناجحة، ولم تكن تلك الحياة التي أريدها.

كانت حياتي هي تلك الحياة التي أرادوها لي.

ليلة موت إبراهيم المصري بكيتُ كثيرًا بلا سبب معلن، كان السبب بداخلي لا يمكنه أن يتجاوزني أبدًا للخارج، جميعهم كانوا شركاء في سجنه وعدم خروجه للنور.

ورأتني عزيزة وسمعت آهاتي المكتومة، ولكنها لم تسألني، وحفظت جميلها عندما لم أسألها إلى أين ستذهب بينما تتسلل خارجةً من الدار.

لم أسألها لأني كنت أعلم جيدًا وجهتها وأعلم أنها ستعود حتى ولو كانت أمنيتي هروبها.

ليتها هربت مع حبيبها وعاشت ما تمنته..

كثيرًا ما سألت نفسي ما الذي كان من الممكن حدوثه إذا رفضت أمرًا ما؟ وكيف كانت ستكون حياتي بعدها؟!

كيف ستكون حياتي لو رفضت الزواج من محمد المصري؟

وماذا لو رفضت رحيله للحرب وتركنا؟

لو رفضت سفر صادق أو زواج عزيزة؟

لو اعترضت طريق أبيها عندما خرج ساحبًا خضر الصغير من جلبابه حتى دار أبيه؟

هل كانت حياتي ستصبح أكثر سوءًا مما أنا فيه الآن؟

أتخيَّل نفسي أعيش ما تمنيَّتُه ولو لمرة واحدة...

مرة واحدة فقط أقول فيها لا..

مرة واحدة فقط أتحمَّل صفعة أو ضربات عصا أبي وأصرُّ على الرفض..

هل لأنني كنت أعلم أن رفضي بلا قيمة ولن يؤثر في القرار، ولن أجني سوى آلام الضرب والإهانة والوصم بالخطيئة وسوء التربية؟

في كل الأحوال كان قرارهم سيُنفذ فاخترت تنفيذه بإرادتي راضية.

لم أَكُن راضية... كنتُ مُجبرَة... كنت خائفة..

عشتُ خائفةً وسأموت خائفةً وجبانة..

ولكني لا أريد أن أموت خائفةً ووحيدة..

تعصف بي أفكاري تلك وأتجاهلها وأتغلب عليها بكثرة العمل في الأرض والدار حتى يرضى عني زوجي.

كنت أريد رضاه وأريده إلى جواري دائمًا..

لم أعرف غيره في الحياة وكان وجوده يمنحني الأمان، هو كل أهلي ودنياي مع صادق وعزيزة.

العِشْرة جعلتني أحبه وأحب طيبته وخوفه الدائم علينا... ربما أكره فيه قلَّة الحيلة، ربما أكره فيه تعنُّت الرجال، ولكنه كان طريقي الوحيد في تلك الحياة.

طريق لن يمكنني أن أسلك غيره وإن وُضِعت فيه رغمًا عن إرادتي، ولكنه أصبح طريقي الذي لن أستطيع أبدًا التوقف في منتصفه.

محمد المصري

عدتُ من مطار القاهرة مُشتَّتًا ما بين فرحة عدم العثور على جثمان صادق وبين الحزن لاستمرار غيابه وقلقي عليه.

مضى عامان منذ آخر رسالة تسلَّمتُها منه وأربعة عشر شهرًا على آخر حوالة وآخر مبلغ يصلني منه قبل أن تنقطع أخباره.

أحصيتُ الأيام والشهور وأنا أدورُ وألِفُّ في كل مكان يمكنه أن يحمل خبرًا عن ولدي. بحثتُ عن أولئك الرجال ممَّن كانوا يُحضرون لي المال، هم لا يعرفونه يتلقون أوامر من داخل بغداد ينفذونها وعدوني بالرد ثم اختفوا، سألت في وزارة الخارجية من أمام بابها، رفضوا استقبالي داخلها، سألت كل من لهم أبناء بالعراق. أرسلت رسائل كثيرة كنت أضع عليها طابَع بريد يعيدها، فعادت دون خبر. شهورًا وأسابيع وأيامًا وساعاتٍ ودقائق كانت سورة يوسف رفيقتي أتلوها على مصطبتي وعيناي تلقيان بمياههما خارجهما حتى كدت أفقدهما، تمنيتُ لو فقدتهما بالفعل إذا كان ذلك الفَقْد سيرسل لي القميص الذي سيُلقى على وجهي فيعيد لهما النور،

ولكن المعجزات تحدث فقط في الآيات التي نتلوها.

جاءنا خبر وفاة منصور بن سليم، تسلَّم والده الجثمان من المطار في صندوق خشبي ملصق عليه ورقة كبيرة تحمل بياناته وسبب الوفاة، ومن يأبَه لسبب الوفاة سوى ناقلي الأخبار المثرثرين على مصاطبهم وأمام المقاهي. حدث ذلك في بداية الأحداث التي ساقتها لنا نشرة الأخبار عن الاضطرابات بين العراقيين والمصريين هناك، لم نَرَ سوى جثمان داخل كفنه الأبيض يخرج من الصندوق ليواريه التراب. يقولون إن أباه هو من رآه وتعرف إليه قبل أن يُغلق الصندوق وتحمله سيارة سوداء إلى بلدتنا، دفنَّاه وتركنا الصندوق مفتوحًا ومُلقى بلا صاحب بجوار المدفن، لا أحد يريده، وقبل أن يُسرق للاستفادة من أخشابه تسللتُ قبل السارقين ونزعتُ الملصق واحتفظتُ به دون سبب معلوم.

كنتُ أريد أن أفهم كيف يمكننا أن نستبدل بروحٍ أخرجناها من بيننا بإرادتنا لإنسان تركناه للغربة صندوقًا خشبيًّا وورقةً بيضاء؟!

لم أَكُن أعلم ولم أتخيل أنه ربما سيأتي يومٌ وأحسد سليم لأنه يعرف مكان ولده، يستطيع أن يذهب إلى مدفنه متى شاء فيشتَمَّ رائحة رفاته.

عشرات الصناديق شبه المغلقة الملقاة أمامي على أرض المطار تنتظر المئات من الأهالي ليلقوا نظرة على شاغليها، للتعرُّف إلى جثامين مُكفَّنة لا يظهر منها سوى وجوه مُغطَّاة، كانوا يستغرقون وقتًا أمام كل صندوق قبل كشف وجهه ليستجمعوا قوتهم، وكنت أعلم أني لن أستغرق وقتًا فجثمان صادق إذا ما كُتب له أن يشغل أحد تلك الصناديق سأعرفه قبل

حتَّى أَنْ أقترب منه. سأشتمُّ رائحته وسأستمع إلى صوته يناديني ورغم ذلك كنت أغرق بين شعورين فور رؤية المُتوفَّى، أحدهما يريد أن يجده فأرتاح من عذاب الانتظار وألم الترقُّب، أن أجده فتمنحني الحياة ولو فرصة أخيرة لرؤيته، قبل أن أودع جثمانه إلى مثواه الأخير لتعانق رُفاته رفات جده الشيخ محفوظ وتبقى عظامهم إلى جواري أزورهما وقتما يأخذني الحنين، بينما أنتظر اليوم الذي سيتغير عنواني ليصبح معهم.

والآخر يتوسل إلى اللَّه أن يكون على قيد الحياة، أخذته الحياة وقسا قلبه فأنكرنا وأهملنا عقابًا لنا على وضعه وحيدًا في غربة مَقِيتة، فربما يأتي يومٌ يكويه الشوق فيعود.

كانت زينب تؤكِّد دائمًا أنه حَيٌّ يُرزق وأنه سيعود، ولكنها كانت تؤكد أنه في كرب شديد وتدعو له بالتيسير والعودة سالمًا.

عندما جاءت الأخبار من العراق عن صراعات المغتربين، كانت دائمًا تقول إن صادق بعيد ولا يمكن أن يمسَّه مكروه، تؤكِّد دائمًا أن صادق طيبٌ ولن يكرهه أحد فيؤذيه. وعندما سمعنا عن النعوش الطائرة رفضت أن تعرف قصتها ولم تمنحني أي فرصة لشرح تفاصيلها، وعندما تواصَلتْ معي الخارجية رفضت أن تأتي معي إلى المطار للبحث بين المُتوفَّيْن هناك.

نَجَتْ هي وأصابني الحزن من تلك الزيارات المتكررة بلا نتيجة، كنت أرى صادق الصغير ممسكًا بيد عزيزة يجريان ويلهوان وسط الصناديق مثلما كانا يفعلان في صِغَرهما، وأنا أزرع الأرض جوارهما وأستمع إلى ضحكاتهما مع كل وجه لميت أراه، وأنا أتألم من اقتران ضحكتهما بصرخات

مَنْ وجد ضالَّته داخل أحد الصناديق المفتوحة. كانت الصرخات تقترب مني كموجٍ يأتي من خلفي يرتفع كلما اقترب فأخشى الالتفات إلى مصدرها، كنت أخشى رؤية العيون الباكية، كنت أخشى رؤية مصيري أمامي إذا ما وجدت صادق.

بعد موت منصور جاءت إلى قريتنا امرأة تحمل طفلًا رضيعًا قادها أحد سائقي سيارات الأجرة إلى دارنا ظنًّا منه أنها تسأل عن ولدنا، لم يفهم لكنتها العراقية، كانت مرهقة ومجهدة والطفل على يديها يبكي، تركتُها لزينب وعزيزة فاهتمَّتا بها وأطعمتاها وطفلها وعندما ارتاحت قصَّت علينا ما جاءتنا به. تركت العراق هاربةً وأتت تبحث عن أهل والد الطفل، فهمت كل شيء واستطعت أن أربط قصتها بما رواه لي صادق في خطابه، هربَتْ أو طردها أهلها موصومةً بعارها بعد علاقة آثمة مع منصور، وعانت كثيرًا حتى وضعت طفلها في القاهرة ثم دارت بقُرَى الدلتا تبحث عن أهل رجل غواها وسلبها شرفها. لم تعرف سوى اسمه وأحرف قليلة من اسم قريته تذكَّرتها بالكاد حتى وصلت إلى دارنا، أخذتُها بعد صلاة العشاء وذهبت إلى دار منصور فطردها أبوه في موقفٍ لم أستغربه كثيرًا.

كنت ألعن هذا الرجل كثيرًا مثلما لعن حَرَاجِي القط حسين العكرش، فلو لم يُغْوِني بحديثه لما تركتُ صادق ولا عرفتُ طريق السفر والغربة من أجل حُلْم لم يتحقق ولم يَعُد يعنيني تحقيقه، وها هو يلفظ دمه وينكره.

أخبرته أن صادق قصَّ لي في أحد خطاباته عن خطايا ولده فأنكرها قائلًا: "اذكروا محاسن موتاكم"، ولم أعرف عن أي محاسن يتحدث ولماذا

نذكر محاسن العاصي بدلًا من الاعتبار منها ومحاولة علاج آثامه، أعرف أن جثمان ولده كان ممزقًا بطعنات متعددة تحمل لذاك الجسد كُرْها، وغِلًّا، وانتقامًا، وعقابًا.

أخذتُ البِنيَّة الصغيرة وعدتُ إلى دارنا أنوي استضافتها، ولكن زينب اختلت بي وأخبرتني أن ذلك سيُعدُّ اعترافًا منَّا بأن ولدنا هو المذنب وسيقترن اسمه بهذا الطفل ابن الحرام، رفضت زينب محاولات عزيزة لإثنائها عن قرارها فتركناها ترحل ولم نسألها عن وجهتها.

تذكرتها وأنا عائد من المطار، شيءٌ ما داخلي تمنى لو كان هذا الطفل ابن صادق فيحمل اسمه وتحمل تلك المرأة على جسدها رائحة عناق ولدي، الآن أتمنى ولو منديلًا من أثره يمكنني أن أحتفظ به.

وصلتُ الدار بوقتٍ متأخرٍ فلم أدخل، كنتُ أعرف أن زينب تنتظر عودتي ولم تنَمْ، كانت قلقة رغم إيمانها بأن ولدها على قيد الحياة. جلست على المصطبة وأشعلت المصباح فوق رأسي، ورجعت بظهري حتى لامست جدار الدار وتركت الأفكار تأخذني إلى عالمها.

عالم آخر أكثر عطفًا ورحمة، عالم أجد به أحبَّتي إلى جواري تتعالى فيه الضحكات، عالم أجد فيه أن من جَدَّ وجد ولكل تعب مقابل، عالم خالٍ من إبراهيم وطمعه ومن سليم ودناءته ومن أقارب الحاج حسين الويشي ونذالتهم، عالم لا يُكتب عليَّ به أن يرحل أحبَّتي في غيابي، فأفقد حتى حقي في نظرة وداع ولمسة وجه أو يد أحفرها في ذاكرتي للأبد.

علمني الشيخ محفوظ أن اللَّه العدل، ولكني لم أجد أي عدل في تلك

الدنيا، ولم أعرف أبدًا كيف يضع مَن اقترن اسمه بالعدل كل هذا الظلم في أرضه وبين عباده، لماذا يعيش البعض في حزن وألم بينما يفرح ويسعَد مَن لا يستحقون، تمنيت أن أجد العدل في الآخرة كما وعدت.

أغمضتُ عيني، فرأيتُني طفلًا صغيرًا يرتدي بذلة المدرسة البُنيَّة ويحمل حقيبته عائدًا يضحك ويمرح ولا يحمل من الدنيا همًّا، وعلى باب داري استقبلني الشيخ محفوظ ضاحكًا، احتضنني بقوة وأخذني من يدي لنسير راحلَيْن مبتعدَيْن عن دارنا.

نظرت خلفي فرأيت زينب تهزني بقوة بينما يسقط جسدي وعزيزة تُهيل التراب على رأسها وتصرخ.

رأيت تجمُّع أهل القرية والجيران حول جسدي، كان منزل حسين الويشي قد بِيع بالفعل وأزالوا تلك اللوحة التي تحمل رقم أقاربه فظهر أخيرًا باقي الجملة بأن (ذَنْبٌ مَغْفُورٌ). وسمعت كلمات الملتفين حولي لتؤكد أني إلى اللَّه عائد، فسألت أبي هل حقًّا ما يقولون يا أبي ﴿إِنَّا لِلَّه وَإِنَّـا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾؟

ابتسم وشدَّ على كفِّي ثم واصلنا الطريق.

عزيزة

اتَّشحنا بالسواد حتى صار اللون المُميِّز لنا بين نساء القرية من الجيران، ولم يكُن الأسود هو لون ملابسنا فقط، ولكن كسا السواد وجوهنا وملامحنا حتى غابت كل الألوان الأخرى حولنا.

امرأتان بلا رجال..

لم تكن علاقتي بوالدي منذ صفعني جيدة، حاولنا كثيرًا العودة ولكن أثر تلك الصفعة لم يزل، كنتُ أرى علامات أصابعه على وجهي كلما نظرت في المرآة، أتعجَّب لماذا تظهر بكل ذلك الوضوح ويختفي إلى جوارها علامات التعذيب الأخرى التي عانيت منها ببيت طليقي. وعلى الرغم من ذلك آلمني موتُه وكسرني رحيله، فجأة أحسست بنفسي عاريةً في سوقِ جَوَارٍ مُكتظٍّ بالرجال ينهشون لحمي وجسدي وأمي تقف في ملابسها السوداء عاجزة عن حمايتي. كانت عاجزة حتى عن حماية نفسها من إهانات الناس، تتشبَّث بلقب الأرملة ليتعاطفوا معها ولكنها غير قادرة على تغيير كوني امرأة مُطلَّقة، الناس في قريتنا يمصمصون شفاههم تحسُّرًا وشفقةً على

الأرامل بينما عيونهم وألسنتهم تستبيح المطلقات كصيد سهل، لم أفهم لأن في نظري فإن الموت والطلاق كليهما أفقدَنا الرجل في حياتنا، والغربة أيضًا مثلهما. لم آبَه لكلام الناس ولم يَعُد يعنيني.

قبل الوفاة، لم تتوقف زياراتي لخضر.. كنت أزوره متسللةً أقدم له الطعام وأجلس معه أتحدث إليه وأُذكِّره بأيامنا وأحلامنا.. وآلامنا، أمنحه قليلًا من دفءٍ ينتشله من برودة أيامه وخذلان البشر حوله، دفء كنت أنا أيضًا أحتاج إليه مثله وربما أكثر، أجلس معه بالساعات هاربةً من كل مشاكل الدنيا ثم أهرب عندما يحين موعد عودة أبي..

مثل حكايات السندريلَّا، ولكن السندريلَّا كانت أجمل، ربما كنت يومًا أجمل منها، ولكن السندريلَّا لم يلطخ جسدَها آثارُ الضرب والجَلْد وحروق السجائر المطفأة على جلدها، لم يقصَّ أحد شعرها لمجرد إهانتها وحرمانها من إحدى علامات جمالها التي كان الجميع يتغنى بها.

كنت أدرك أن أبي يعرف، أمي تعرف، الناس في قريتنا يعرفون ويتحدثون، ولكني لم آبَه لذلك، يكفيني أن أحدًا لم يجرؤ على الحديث بشيءٍ أمامي. تتمثل حقارة الغيبة في أن قائلها أجبَن من مجرد نطقها في وجود المغتاب، وحتى لو ذكروني في مجالسهم فلن يؤثر حديثهم ولن يؤذيني مثلما أذاني صمتهم من قبل.

عندما جاءت المرأة العراقية إلى دارنا وقبل أن يتركها أبي للرحيل تحدثت إليها، وسألتها عن قصتها، اسمها العنود ويبدو أنها حملت من اسمها صفاته فعاندت أهلها وهربت مع حبيبها، رفضت أن يربطها المجتمع بزوجٍ غاب

لسنواتٍ طويلة ولم يُرِد أحد منحها الحرية. لم يؤمن أحد باحتياجاتها النفسية ولا الجسدية. ولم تستطع أن تخبر أهلها بحاجتها للرجل مجرد تلميحها بحاجتها للجنس كان من الممكن أن يجعل منها قتيلة أو سجينة للأبد. هربت وعاشت مع من أحبته ومنحها ما تحتاج إليه، قدم لها الممنوع عنها بسهولة ويُسْر ولا يهم إن كان رجلًا أو نذلًا، أحبها أم طمع في جسدها، ولكن ما يهم أنهما التقيا على تحقيق حلم أراداه، لم تكُن سعيدة ولم أَكُن سعيدة، كنت أريد أن أتحدث معها كثيرًا فربما أعرف لماذا لم تتحقق سعادتها رغم أنها فعلت ما أرادت، فلماذا لم تعرف الطريق إلى السعادة وتكمله لنهايته؟

تابعت أخبارها فعرفت أنها سكنت غرفة صغيرة في دار شبه متهدم على أول بلدتنا، زرتُها كثيرًا فأصبحنا صديقتين، ساعدتها في البداية بما أستطيع من طعام أو غلال أو لبن وجبن من دارنا، كنت أحيانًا أنزل إلى أي حقل في طريقي إليها أقطف بعض الخضراوات وأقدمها لها سِرًّا، ولكنها قررت أن تبدأ حياة جديدة فعملت مع الأنفار في الحقول، ثم هداها تفكيرها لعمل الأكلات العراقية وبيعها، فأعجب الناس جودة طهيها واختلاف ما تقدمه فراجت تجارتها.

بعد موت أبي ذهبتُ إليها وطلبت منها أن تعمل معي في بيع الفاكهة والخضراوات وما تخبزه أمي، بعد أن عادت لمهنتها التي أجادتها في صِغَرنا عندما غاب أبي في الحرب. كنا نبيع الخضراوات والخبز في السوق صباحًا ونعمل بالطهي في المساء، استطعنا استغلال تعاطف الناس والتجار مع أمي الأرملة فكانت هي مَنْ تتفق معهم، وساعدت أمي في حمايتنا من

كلام الناس وتربصهم الدائم بنا، ولم تنقطع أحاديثنا عن صادق وعن أخبار العراق، فكنَّا نتابع الأخبار ونسأل الناس ونترك تجارتنا وفرشنا كلما سمعنا عن عودة أحد المغتربين، ونجري حتى نتكفَّى على وجوهنا على أمل أن نحصل على أي معلومة تساعدنا في الوصول إلى أخي.

تضاربت الأقوال بين من أكَّد لنا أن الشيعة وَشُوا به وأسره الإيرانيون على الحدود، ومَنْ أخبرنا أنه قُتل في الجمعة السوداء أثناء احتفالات المصريين بمباراة لكرة القدم، أو ربما جنَّدته جيوش صدام. أخبار كثيرة وكل شخص يتحدث إلينا بزهوِ العالِم ببواطن الأمور، حتَّى إنَّ منهم مَن استغل الحديث عن صادق لمحاولة التقرُّب إلينا.

وضع زَوْجَا عماتي أيديهم على الأرض وزرعاها وكانا يرسلان لنا من خيرها ومما تجود به وعادت عماتي لزيارتنا، ولكن أمي كانت تكره دائمًا نظرات الشفقة في أعينهما، قالت لها إحدى عماتي ذات يوم:

– سيرة عزيزة أصبحت على كل لسان.

صمتت أمي ولم تُجِب كانت قوية فيما مضى ترد القول بالقول وتدافع عن نفسها وعن عائلتها، ولكنها صمتت ثم صارحتني، لم أجعلها تكمل حديثها وثُرْتُ فيها وصرخت، لا أذكر ماذا قلت، ولكني كنت غاضبة.

جاءني زوج عمتي صباحًا بالسوق وكرر نفس الكلام فلم أستطع مواجهته، كنت أحبه وكان يحبني كثيرًا في صِغَري، ولكننا فقدنا الحب وسط أيام الغدر والقطيعة، بكيت.

ولكنه كان مثلي يبحث عن حبنا المفقود فلم يستطع ضمِّي أو إعطائي الحلوى التي تجعلني أكفُّ عن البكاء، مثلما كان يفعل في زمان مضى.

قلت له:

- زوِّجني خضر.

صدمته بطلبي، ولكني كنت أعلم أنه سيفهمني، كان قديمًا يفهمني، وكنت أشعر باضطرابه وخوفه من أبي وأمي عندما يقدم لي الحلوى الممنوعة رغمًا عن إرادتهم، شعرت بقلقه واضطرابه، بنصف ابتسامة أخبرني أنه سيزورنا في المساء.

جاء مع أخيه وعماتي وتحدثنا، كنت أضع يدي على وجهي بين الحين والآخَر، أتحسَّس ألم صفعة أبي وأنا أُعدِّد لهم مزايا زواجي من خضر. رفضَتْ أمي في البداية مُعلِّلةً رفضها بأني سأخالف رغبة أبي وأنه لن يرضى في مدفنه، لا أعلم كيف لميت أن يرضى أو يرفض أو تتدخل إرادته في تحديد مستقبل لشخص ما زال حيًّا تغيرت عليه الظروف والأحوال، ثم جادلتنا بأنه كيف سنقيم الزِّيجَة بينما أخي لا يزال غائبًا! حاولت ولكن إصراري ودفاع زوج عمتي عن رغبتي ومحاولة إقناعها بوجود رجل بيننا ولو بالاسم فقط سيكفُّ لَغَط الناس حولنا حسمًا الأمر لصالحي في النهاية، مبررات كثيرة كاذبة سُقْتُها دفاعًا عن حُلْمٍ قديم.

سأل زوج عمتي شيخ المسجد عن حكم تزويج فاقد العقل لرعايته ولصَوْن العِرْض وكَفّ الأذى، فبارك الشيخ الزيجة وما بها من خير.

تشبَّثت برأيي وطلبت فرحًا وليلة عُرْس كبيرة ليتحاكى بها أهل البلد.

طلبت من الرجال تزيين خضر وتجهيزه كما يُجهز العرسان ووضع الأنوار والزينة على الدارين ونصب شادر الفرح واستقبال المهنئين والمباركين من كل مكان، وتوسلت لأمي لتحضر الحنَّاية لتُزيِّنني بالحنَّة والمخمريَّة، وتصنع الحنَّة للبنات والجيران وتفتح دارنا لهن ليرقصن ويغنين طوال الليل.

(خدناها خدناها..

خدناها بالسيف الماضي

وأبوها ماكنش راضي

وعشانها بيعنا الأراضي

الحلوة اللي كسبناها،

خدناها خدناها..)

في ليلة العُرْس وضعا كرسيَّيْن على مصطبة دارنا وجلست بجوار خضر في ليلة تأخرت أعوامًا، عديدة كنت أغني وأرقص وأتمايل وأنا أرى نفسي عائدةً إلى الطريق الذي تمنيته، كنت خارج عالمنا. فرأيت طيف صادق آتيًا من بعيد يقترب من دارنا.

رأيت أمي تجري إليه صائحة أنها كانت تعلم أنه حي، ورأيت الرجال يلتفُّون حوله مُرحِّبين ومُتعجِّبين وصوله بعد كل ذلك الوقت.

لم أتحرك.. ظننته حُلْمًا حتى وجدته أمامي لا تفصلني عنه سوى خطوة واحدة، جعلتني أستمع بوضوح لصوت أنفاسه وأشعر بها وأشتمُّ رائحته، أرى تلك الدمعة الهاربة من عينه وأمدُّ يدي لألمسها قبل أن تهرب ساقطةً من خدِّه، لمسته.. ثم سقطت.

الفصل الرابع

(رسالة – لم تصل)

يناير – 1988
قرية (ونس النيل/ دقهلية)
يسلم ليد/ صادق محمد المصري
بمَقرّ عمله – العراق – بغداد – شارع المتنبي – مكتبة الفرات

ولدي العزيز الغائب/ صادق

لم أعُدْ أُحصِي الرسائل ولا أعرف كَمْ رسالةً أرسلتها ولم تصل ولا كم رسالة عادت أو اختفت.

أُرسل إليك وما زال لديَّ الأمل أن تصلك رسالتي فتجدك في خير حال، حتى لو أنكرتنا أو أصاب قلبك كُرهٌ أو ضغينة لا أعرف لها سببًا سوى أن البعد ربما زاد قلبك صلابة، وربما أستطيع أن أصل لذاك الجزء الذي أُصيب في قلبك وأجعله يرقُّ ويلين فتعود إلينا صادق الذي نعرفه.

سأعترف لك يا صادق أنني كنت مخطئًا، أمضيت حياتي أدفع ثمن

تلك الأخطاء وكنت أظن أني وحدي من يدفع الثمن، ولكني اكتشفت أن المُعلَّقين برقبتي متضررون مثلي، اكتشفت، ولكن بعد فوات الأوان أن أخطائي هي مَن دمَّرت أسرتنا.

في كل مرة يا صادق كنت أُضطر لاتخاذ قرار لم يشغلني مدى صحته مثلما شغلني أنه ربما يكون علاجًا لخطأ سابق، فقضيت عمري أعالج خطأً بخطأ، ومنعني الكِبْر من الاعتراف أمامكم أو أمام أمك والناس.

أخطأتُ في تقدير قيمة الأشياء.. كنت أعتقد أن ثمن الأرض فلوس ولم أحسب قيمة الفراق والغربة، حسبت قيمة الغربة ولم أَعِ أن ثمنها ألم الوحدة وبرودة الفراق، لو كنت قدَّرت سعر الأرض بثمنها الحقيقي لاختلف القرار.

عُدْ يا ولدي وكفَى..

عُدْ فالحسبة خاسرة..

عُدْ واقضِ معي ما تبقَّى من عمري، فثمن كل لحظة نقضيها في فراق لن نستطيع تعويضه وسيزداد قسوةً كلما زادت مدته.

الحياة يا وليدي تمضي في اتجاه واحد كطريق نسلكه ولا نملك أن نعود فيه للخلف للتعديل، لأننا لن نكتشف أننا نسير في الاتجاه الخطأ إلا بعد أن نضلَّ فيه.

في الأيام الماضية كنت أجلسُ وحيدًا على المصطبة أفكِّر وأتدبَّر الأمر ثم أبرر لنفسي بأن نيَّتي كانت خيرًا.

ولكني لن أستطيع أن أخدع نفسي أو أخدعكم أكثر من ذلك..

بُعدك ليس خيرًا..

وحدتك في الغربة ليست خيرًا..

نظرات الفَقْد في عيون أمك ليست خيرًا..

برودة أيام عزيزة ليست خيرًا..

لم أجد الخير يا صادق..

ارجع يا وليدي، واجلس معي على المصطبة، ارجع والتفَّ معنا حول طبلية الطعام فما عليها سيكفينا، كان دائمًا يكفينا وتُشبعنا الضحكات والنظرات ودفء قربنا من بعضنا البعض.

ارجع يا ولدي، قبل فوات الأوان..

وأخيرًا يا صادق، إن استرد اللَّه وديعته وعُدتَ فلم تجدني فاعلم أنني ورغم كل تلك الخطايا سأنتظرك في الجنة، ابتلانا اللَّه في الدنيا بالغربة والفراق ليُطهرنا من ذنوبنا وخطايانا وسيمنحنا العوض في الآخرة بالجنة، ولكن جنتنا لن تكون مثل تلك التي وصفتها الكتب السماوية، لن تضم الحدائق الغنَّاء ولا القصور والحُور العين، جنتنا ستكون وطنًا نعيش به معًا ولا نتركه أبدًا، وطن لن يفرقنا وسيمتلئ بالناس التي أحببناها وأحبَّتْنا.

إذا كانت الغربة قد أصابتك يا ولدي فإنها وبالضرورة قد أصابتنا معك حينما وافقنا على رحيلك ولم نمنعك، فكان عقاب اللَّه لنا في الحياة وسيعوِّضنا باللقاء في عالمٍ آخَر.

والدك/ محمد المصري

***

صادق

لم أُصدِّق أنني سأرى دارنا من جديد، خطواتي بعد نزولي من السيارة الأجرة على أول بلدتنا بدت ثقيلة، لها صوت يشبه الارتطام بأرض صلبة، اختلطت مع دقَّات قلبي وصوت أنفاسي اللاهثة.. كنت أترقَّب الوصول لا أتعجَّله، ولكني أريده بشدة.

رحلة طويلة وقاسية لم أحْصِ كَم استغرقت تنقُّلًا بين الدول من نقطة تفتيش إلى أخرى، ومن حجز في مُخيَّمات أو الانتظار لساعات طويلة داخل حافلات، كنت مجرد رقم بين مجموعات لم تتميز بالأسماء حتى وصلنا إلى القاهرة فتفرقنا كُلٌّ في طريق.

آخر ما أذكره هو تلك المسافة التي قطعناها على الحدود مهرولين رجالًا ونساءً وأطفالًا، تاركين خلفنا كل شيء دون أن يكون لنا حق الالتفاف إلى الخلف لرؤية ما تركناه.

لم أفهم نظرات الناس ممَّن مررت بهم في طريقي لدارنا، الإرهاق والتعب

كادا أن يفتكا بي، ولكن كل ذلك اختفى عندما رأيتُ دارنا ولمستني أمي ووضعت عزيزة كفَّها على وجهي.

سقطت عزيزة بين يدَيَّ فمنعتني من الانهيار أمامهم، كان عليَّ تحمُّل آلامي، دخلنا إلى الدار بينما كنت أبحث بينهم عن أبي وأسألهم فلا أتلقى إجابة.

عندما رأيت عزيزة تجلس إلى جوار خضر مرتديةً فستان الفرح وعمَّتَيَّ تقفان إلى جوار أمي وزوجيهما في استقبالي، تمنيت أن أجد أبي ليُخبرني أن كل شيء على ما يُرام، أنه عفا عمَّا سلف وجمع شملنا، كنت أريد أن أجد الفرح بنهاية غربتي، حتى لو لم أكن أحد أسبابه لأنني سئمت الحزن.

زادوني حزنًا عندما أخبروني بما حدث، كانوا يقصُّون روايتهم منتظرين مني التعليق أو أن تخبرهم ملامحي وانفعالاتي برأي، أن أبارك أو أثني عليهم أو أرفض، أن تظهر فرحتي أو حزني، ولكن هذا لم يحدث. فجأةً شعرت أني لم أعُدْ أنتمي إلى ذلك المكان، غريبًا أو ضيفًا أو عابر سبيل ربما سيقضي وقتًا بينهم، ثم يرحل لغربته تاركًا لهم حياتهم التي عاشوها وقرروها دونه.

أمي هي مَنْ شعرت بي واحتضنتني، هي من شعرت بألمي وحزني على فراق أبي الذي حرمتني الدنيا من مجرد وداعه، فحاولَتْ أن تُشعرني بلهفتها لبقائي وفرحتها بعودتي.

قال لي أحد الرجال الواقفين: "سنتركك ترتاح ثم تقصُّ علينا ما حدث لك".

كانوا يريدون معرفة قصتي، ولكني لن أرويها سأكتفي بكلمات قليلة عن مأساة عشتها، دون تفاصيل أشعر أنها لم تعُد تخصُّ أحدًا غيري.

أحضرَتْ لي أمي الماء الساخن وجلبابًا كان لأبي فاغتسلت وعدت إلى غرفة الضيوف لأنام، لم أَكُن متأكدًا هل لا زلت أمتلك غرفة في هذه الدار أم سلبتها مني الدنيا كما سلبت كل شيء آخر، لم أَكُن متأكدًا ماذا أملك في تلك الدنيا التي أعادتني من غربتي بخُفَّيْ حُنَين، بلا شيء ولا حتى أمل في حياة جديدة لا أملك لها نقطة بداية.

***

أمام السرير في غرفة الضيوف كانت هناك صورة معلقة لأبي بشريط أسود على ركنها الأعلى، كنتُ أتأملها بينما أتذكَّر ما حدث منذ اتخذت قراري بعدم قراءة أو إرسال الخطابات، اكتفيتُ وقتها بإرسال الحوالات عن طريق المهربين وكان يكفيني خبر تسلُّمه لها لأطمأن عليه، وعندما أخذني الشوق لقراءة رسائله والعودة لمشاركته أخباري كانت الأخبار لا تسرُّ والأحوال قد ساءت. بدأت بانخفاض الراتب والقبض على المهربين ورفض البنك تحويل المال للخارج، لم يكُن أمامي وقتها سوى مضاعفة العمل وجني أكبر قدرٍ ممكنٍ من المال في مدة قصيرة ثم الرحيل من العراق. بدأ حُلْم العودة يراودني ولكني كنت مثل المُكبَّل بسلاسل مفتاحها جمع المال لتحقيق حلم شراء الأرض حتى تصبح لغربتي قيمة، أصابني الخجل من إرسال خطاب لأبي أشكو فيه همومي بعد فترة من الانقطاع عنه، لم أَكُن جاحدًا ولم أنكر أهلي، كنتُ أشتاق إليهم فقررتُ البُعد حتى يمنحني

الاشتياق الحافز لمواصلة العمل وسرعة العودة، كنت أعاقب نفسي بالغربة.

أهرب كل يوم بكثرة الحديث مع عَمّ كاظم ونتابع معًا الأحداث عن الحرب وعن عودة الرجال وصراعاتهم في الحياة ومع المغتربين، ولكنه أيضًا كان حزينًا ووحيدًا لم يُغْنِه وجودي عن انتظار عودة ابنه الغائب.

أحسستُ وقتها بواجب مساعدته وشعرت أنه ربما أرسلني اللَّه له حتى أساعده في البحث عن ولده، لم يرسلني لأُغنيَهُ عنه، هو أيضًا لم يُغْنِني عن أبي.

عاد الجميع من الحرب، ولكن ابنه لم يعُد، جاءتنا أخبار متضاربة عن موته أو أَسْره، كنت أخرج معه في أيام الجمعة لنزور العائدين من ساحات القتال، حتى أخبرنا أحدهم أن ولده لم يَمُت ولم يُؤسَر، كان يتحدث بخوف يتلفَّت حوله ثم يهمس مكملًا حديثه:

- قُصَيّ ولدك انضم إلى البيشمركة.

قالها ثم هبَّ واقفًا مُعلنًا انتهاء الزيارة، وعلى باب منزله توسل إلينا بقوله:

- أنا لم أخبركما بشيء!

في طريقنا للعودة كانت هناك أسئلة كثيرة تدور في رأسي تحتاج إلى إجابات، كان لديَّ القليل من المعلومات عن الأحزاب والصراعات داخل العراق، ولكني كنت أفضِّل الابتعاد عن الخوض فيها، سألت عَمّ كاظم:

- ما الذي يجعل ولدك ينضم إلى حزبٍ كُرْديٍّ مُعادٍ للسلطة؟

أجابني بحزمٍ لم أَعتَدْ عليه منه:

– لأننا لا نحبهم.. ولا نوافق ما يفعلون، لأننا نريد لتلك الحروب أن تنتهي.

– وهل ستنتهي الحروب بالانضمام لحزب مدعوم من الأعداء، من إيران؟!

سألته مُتعجبًا..

– هل في انقسام الوطن الواحد صلاح للحال؟

صمت قليلًا، ثم أجابني:

– سأخبرك بما لا تعرفه عن قصتي..

كنت مُزارعًا في قرية صغيرة على نهر الوادية بمحافظة حدودية تُسمَّى ميسان، أزرع وأحصد وأعيش في سلام، كنت في حالي، ولكني كنت أرفض الخطأ وأرفض الخيانة، حتى إنني كنت أقوم بالتبليغ عمَّن يعملون بتهريب البضائع لإيران من جيراني، ولكن جاءت تلك الحرب اللعينة وهدمت كل شيء. فجأةً أصبحنا مجبرين على ترك ديارنا والرحيل، هجَّرونا ووجدنا أنفسنا نعيش مثل الحيوانات في صرائف العاصمة ولم يسمحوا لنا بدخول بغداد. فقدتُ زوجتي في الوباء، وفقدتُ ولدي الأكبر في معركة شهيرة ربما تعرفها (الشوش– ديزفول). وليس ولدي وحده كانت مجزرة راح ضحيَّتها أكثر من اثني عشر ألف شابًّا عراقيًّا، حاصروهم وقتلوهم وأسروهم والسُّلْطة لا تفعل شيئًا سوى أخبار كاذبة ووعود.

هربتُ إلى بغداد ومعي ولدي قُصَيّ وانضممت إلى حزب داخل بغداد، وعندما شعرت أن لا فائدة من أي شيء هربت إلى تلك الغرفة وعشتُ بها وحيدًا بعد أن رحل قُصي للجيش.

سألته بتعجب:

– هل أنت شيعي؟ وهل هذا أحد أسباب رفضك للحرب مع إيران؟

كانت تلك هي المرة الأولى التي أعرف فيها هُويَّته المذهبية، هو مسلم فلم يَعْنِني أي شيء آخر، حتى سؤالي كان فضولًا لا أكثر.

– الحرب يا ولدي لا تفرِّق بين سُنِّي وشيعي، ولا تعرف اختلاف الأحزاب، الرَّصَاص لا يعرف المذاهب، هل تعتقد أنهم في إيران لم يقتلوا الجنود الشيعة؟ سمعت عن ضابط كبير هناك من أصل عراقي بعد تلك المعركة اقتاد المئات من الأسرى وأطلق عليهم الرصاص، ربما كان ولدي الأكبر واحدًا منهم، فهل تعتقد أنه سألهم قبل قتلهم؟

في الجمعة التالية، أخبرني الرجل أننا سنزور أحد الأسرى الهاربين من معسكر أَسْر إيراني، وصلته معلومة أنه كان ضمن أحد معسكرات البيشمركة قبل أسره. ذهبنا للرجل فاستقبلنا خائفًا، لم يتحدث حتى أخبره الرجل أنه والد قُصي فأخبرنا أنهم كانا بالفعل معًا في معسكر حدودي، ولكنه تركه ثم وقع في الأَسْر.

لم يكُن هذا الرجل هو أول أسير أستمع إلى حكايته، كانت حكايات الأسر أشد رُعبًا من الموت، وكان الموت هو حُلْم المأسورين، رأيت ذلك

في عيونهم المكسورة، ورأيته في عينَيْ عَمّ كاظم عندما تمنَّى الموت لولده بدلًا من معاناة الأسر.

كانوا يتحدثون إلينا بينما يعتريهم الخوف والتردد، يحاولون منح أنفسهم الإحساس بالأمان رغم انكسارهم الواضح، يصفون معاناتهم في التنقُّل من مكانٍ إلى آخر، كيف عاشوا في صناديق وكيف أصبح مجرد التغوُّط في العراء حُلمًا بعيد المنال. كيف أُجبِروا على الوقوف عرايا، يصفون معاناتهم ليتخلصوا منها ويلقون بها من داخل رؤوسهم لخارجها على أمل ألَّا تبقى في ذاكرتهم. وعلى الرغم من كل تلك المعاناة كانوا يتجنَّبون الحديث عن الحكومات وعن الحرب وعن السياسة، كانوا خائفين في الأَسْر واستمر خوفهم في الوطن، كانوا ناجين، ولكنهم كانوا تعساء.

لم أجد ما أصنعه للرجل المسكين، ولم تكُن كلمات المواساة كافية، أصبحت أشعر بخوفه وحزنه في كل أفعاله وترقُّبه الدائم لعودة ولده.

مساعدتي له وصمتني بالوشاية، وبدأت ألاحظ تجنُّب الجميع لي، أصبح كل فريق يضعني في الجانب الآخَر، السُّنَّة اتهموني بالتشيُّع والموالون للسُّلْطة اتهموني بالتمرُّد، وفي صباح أحد الأيام أخبرني صاحب الكشك أنه لم يَعُد بحاجة لوجودي للعمل معه، أدركت وقتها أنه حان وقت العودة، تذكَّرت أنَّ هناك على الجانب الآخر من النهر رجلًا ما زال يترقَّب عودة ولده.

ذهبت إلى البنك لسحب مدخراتي أو تحويلها لمصر فرفضوا، وبعد محاولات كثيرة وسؤال مَنْ هم مثلي من المغتربين عدت إليهم بلا حيلة، فمنحوني بالبنك ورقةً صفراء وأخبروني أنني سيمكنني استرداد أموالي حتى بعد عودتي لمصر، احتفظتُ بها وحزمتُ أمتعتي واتخذتُ قرار الرحيل.

***

(العودة)

الجمعة 18 نوفمبر 1989

- فازت مصر

أخبرني صديقي والفرح يكسو ملامحه، لم تكُن حربًا كانت مباراةً لكرة القدم، لم أحبَّها ولم تشغلني تلك اللعبة مطلقًا، فلم أُظهر أي اهتمام.

كررها صديقي:

- فازت مصر، وصلنا كأس العالم، لماذا لم تفرح مثلنا؟

قلت له:

- وهل تستحق مباراة في كرة القدم كل تلك الفرحة؟!

أجابني بحماس:

- يا صديقي، في غربتنا تلك لا سبيل للفرحة ببلدنا سوى مثل تلك

الأحداث، نحن نبحث عن أي فرحة.

سحبني معه وخرجنا إلى الشارع، لم نكُن وحدنا كان معنا آلاف المصريين ممن يبحثون عن الفرحة مثله. طالت الاحتفالات والهتافات لمصر، ولكنها سرعان ما تحوَّلت لمأتم عندما دهست سيارة مسرعة لعراقيٍّ عشرات المصريين. تُوفِّي رجل بينهم فما كان من الجميع إلا أن ثاروا ونشبت حرب بين العراقيين والمصريين. معركة كبيرة كنت أقف في أحد الأركان لأتابعها بدهشة بينما يتبادلون إطلاق النار والعراك بالأسلحة البيضاء حتى وصلت الشرطة بعد فوات الأوان، حاصرت الجميع وأغلقت المداخل المؤدية إلى منطقة المربعة، وحاصرت شارعَي النهر والرشيد فوجدت نفسي سجينًا وسط آلاف الثائرين. هتفت معهم لمصر، وتذكَّرت كل آلام غربتي. تذكَّرت عَمّ كاظم، تذكرت أموالي التي لم أستطِع الحصول عليها، هتفت معهم ضد العراق، فانتهى بي الحال معهم سجينًا.

نجحت محاولات السفارة المصرية وتدخل الرئيس صدام حسين في الإفراج عن البعض، ولكني لم أخرج.

قضيتُ أيامًا أتنقَّل من مكانٍ لمكان، دون تهمة ولا محاكمة، ثم وُضِعت في السجن لفترة طويلة لم أحْصِها، عانيتُ كثيرًا داخل السجن، كل أسئلتي كانت بلا إجابات.

اضطررت بعدها لإبرام صفقة حتى أنال حريتي، عندما جاءنا ضابط برتبة كبيرة وأخبرنا أنه إذا أردنا الخروج من السجن فإنه سيُخرجنا الليلة، ولكن ليس إلى ديارنا إلى الجيش!

لم يمنحنا مهلةً للتفكير، وأخبرني صديقٌ تعرَّفت إليه داخل السجن إنه لا سبيل آخر للخروج سوى الموافقة، والحرب انتهت، نقضي وقتًا قصيرًا بالجيش ثم نرحل.

وافقت، وخرجت من السجن إلى مركز للتدريب.

حاولتُ كثيرًا في السجن إرسال خطاب لأبي أو الاتصال به، ولكني فشلت، لا أعلم لماذا كنت ممنوعًا مما أُبيح لغيري من المسجونين، ربما بسبب موقفي في البحث مع عَم كاظم وكثرة أسئلتي. كان هناك الكثير من العامَّة في العراق يرسلون تقارير للسُّلْطة وربما أرسل أحدهم شيئًا عني، وافقت على أمل أن أستطيع فعل ذلك في الجيش والتواصل مع أبي بأي طريقة، ولكن ذلك أيضًا لم يحدث.

تركت كتابة الخطابات بإرادتي والآن أتمنى لو أستطيع أن أمسك بالقلم والورق لأكتب جملة وحيدة لأبي، تخبره كَم اشتقت إليه وإلى حضن أمي وضحكة عزيزة.

أخبرونا في معسكر التدريب أننا سنحارب، سألت بدهشة سنحارب مَنْ؟!

لم أتلقَّ إجابات، لا أعلم متى كانت آخر مرة تلقَّيت إجابة على سؤال.

تناثرت الأخبار بين الهامسين أننا سنحارب الكويت!

عشتُ عمري صاحبَ فأسٍ وقلم، والآن مطلوب مني أن أرفع السلاح لأقتل حتى لا أُقتل، أن أوجِّه سلاحي لمسلم عربي مثلي!

عندما تحركت الجنود قررت الهروب، عند الإنزال على الحدود الكويتية هربت، هرولت ولم أنظر خلفي.. هرولت كثيرًا حتى وجدت مئات الهاربين مثلي من الكويت والعراق.

كانت رحلة العودة قاسية، ولكن استقبلتنا مصر مثلَ أُمٍّ تعاقب أبناءَها بالضرب ثم تحتضنهم عندما يبكون، كنَّا جميعًا نبكي.

***

على السرير المتهالك في غرفة الضيوف كنت لا أزال أتطلَّع إلى صورة أبي المعلقة، بجوارها العباءة الصوف التي أحضرتها له وبينهما بذلته العسكرية المزدانة بدماء صديقه. أخرجتُ الورقة الصفراء التي تحمل ختم العراق ورقمًا لمبلغ من المال، ثم ألصقتها في الركن السُّفْلي خلف زجاج الصورة.

عدتُ إلى سريري أتأملهم بينما لا زلت ورغم مرور كل تلك السنوات، أنتشي بنسمات الهواء المتسللة عبر باب الغرفة المكسور محملةً برائحة الطين ونسيم البرسيم الذي يدفعه هواء البحر، أُنكر الماضي وأفكر في المستقبل مُحاولًا الوصول لإجابة سؤال يدور في رأسي منذ عودتي، سؤال عن ذاك الضوء الذي لا زلتُ أراه في نهاية الطريق.

النهايـة

رسالة وصلت بعد موعدها

في عام 2016، وأثناء حفر إحدى الطرق ضمن المشروعات الجديدة في سيناء، وجد العمال رُفاتٍ لجندي مصري تحت الرمال.

هيكل عظمي يرتدي زِيَّ القوات المسلحة والحذاء والخوذة ويحمل سلاحًا وخزنتَيْ رَصَاص، ومعه مُتعلَّقات شخصية لم تتضرر عبارة عن بطاقته الشخصية باسم عوض محمود الشحات، ومبلغ مالي خمسة وثلاثين قرشًا، وخطاب مُوجَّه إلى شخص يُدعى/ الشيخ محفوظ المصري

جاء فيه ما يلي:

"والدي الغالي الشيخ محفوظ المصري/

بسم اللَّـه الرحمن الرحيم: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ صدق اللَّـه العظيم.

إذا وصلك جوابي فهذا يعني أني لم أعُد، وأن عوض الشحات بخير فالحمد للَّه الذي نجا أحدُنا ليعود ويخبركم أننا كنَّا أبطالًا أخذنا عهدًا ألَّا نعود حتى نحرر الأرض، وقد فعلناها وعبرنا واستردنا أرضنا وكرامتنا..

علَّمتَنِي يا والدي أن أعيش رجلًا وأموت رجلًا فكنت خير سفير لعائلتنا.

عندما قررت الرحيل لم يكُن لديَّ أيُّ شكٍّ بأنني سأنتصر فهذا ما زرعته بداخلي، فارفع رأسك يا شيخ محفوظ فأنت أبو البطل الشهيد.

أخبِر إبراهيم بأني أوصيه بزوجتي وعيالي، أنا أعلم أنه رجلٌ سيكون لكم سندًا وسيحفظ الحق والعِرْض، وأخبره يا والدي أني طالما أحببته وطالما كنت أراه المثَل والقدوة والرجل الذي تمنيت أن أكون مثله في جَلَده وعطائه.

أخبِر زينب ألَّا تحزن واترك لها أمرها إن أرادت أن تلحق بي في الجنة، وإن لم تستطع وأرادت الزواج فلها حريتها فما زالت صغيرة والعمر طويل أمامها، ولكن دَعْ صادق لإبراهيم يعلمه كما علم خضر، وعندما يشتد عود عزيزة فليزوِّجها خضر ليعيشوا جميعًا معه في كنفه وتحت رعايته.

سلامًا على الأحبَّة والأهل حتى نلتقي في دار الحق.

ابنك البطل

محمد محفوظ المصري

***

تعقيب

بعد عودته بعشرة أعوام، قابلت صادق صدفةً في مدينة المنصورة عندما كنتُ في زيارة سريعة لعائلتي هناك.

كان شكله قد تغير كثيرًا، حتى ملابسه، كانت كَاچْـوَال مهندمة تُخفِي سنوات عمره.

سألته عن أحواله فأخبرني أنه بخير حال، بعد عودته استغل الأموال التي أرسلها لأبيه من أجل شراء الأرض وهدم الدار الطينية، وأقام بدلًا منها منزلًا بالطوب الأحمر مُكوَّنًا من ثلاثة طوابق بعد أن قسَّمها وباع الفرن والزريبة، ثم افتتح دُكانًا للبقالة بالطابق الأرضي وترك الزراعة والطين، ومنذ أشهر قليلة استرد أموال العراق بالحوالة الصفراء مع إحدى الدفعات ضمن جهود البنك المركزي المصري، فاستغلَّها في عمل تشطيبات جديدة لواجهات البيت الخارجية، وغيَّر نشاط الدكان ليبيع لأهل القرية أجهزة كهربائية بالتقسيط.

أما عزيزة، فاستقر حالها مع خضر وأخذت قيراطين من عمتيها تزرعهما وترعى خضر وأبناءَها بعد أن أنجبت منه ولدًا وبنتًا أسمتهما على أسماء ممثلين في أحد المسلسلات الأجنبية، واستغلَّت وِرْثها من أبيها وورث خضر وبدأت معه رحلة علاج في أحد المستشفيات النفسية بالمنصورة، وأخبرها الأطباء أنه سيتعافى مع الوقت، ثم ضحك وقال: "وأهو مَرّ عشر سنين".

وماتت أُمُّه متأثرةً بمضاعفات مرض الكبد نتيجة إصابتها بالبلهارسيا، بعد أن تأخر اكتشاف المرض بمستوصف القرية.

سألني عن أحوالي فأخبرته أني بخير تزوجت وأنجبت ولدين، أحدهما يدرس في كلية الهندسة "ومهووس ياسيدي عاوز يخلص ويسافر بَرَّا".

عزمني على زيارته بالقرية غامزًا: "ما نفسكش في أكلة سمك مشوي نصطاده واحنا معدِّيين للبَرّ التاني، ولَّا لسَّه بتخاف المعدية تعطَل بينا في نُصّ الطريق؟"

تـمت

الإمارات – العين
مقهى حكاية بلد
16/ 2/ 2023

شكر واجب

- أتقدم بكل الشكر والتقدير لزوجتي ورفيقتي ولأولادي، تحملوني كثيرًا أثناء جلسات الكتابة التي سرقتني منهم وسلبت حقهم في الوقت الذي قضوه دوني.
- شكرًا للأدباء الكبار "طارق إمام" و"نورا ناجي" على قراءتهم للمخطوطات الأولى للرواية، وكان لملاحظاتهم ورأيهم الدقيق دور مهم في ظهور العمل بهذا الشكل..
- شكرًا لكل من قرأ الرواية من أهلي وأحبتي وكانوا دائمًا مشجعين لي بالاستمرار في الكتابة وإنهاء النص.
- شكرًا للصديق الغالي مصطفى الطيب وترشيحاته العظيمة، التي تجاوزت الكتب والروايات لترتيب لقاءات مع أصدقاء من العراق الحبيب أفادوني كثيرًا في فهم الأحداث في تلك الحقبة الزمنية الدقيقة.
- شكرًا لمقهى حكاية بلد – في مدينة العين وكل العاملين به، وللطاولة رقم 3 التي شهدت كتابة الرواية كاملةً من بدايتها وحتى كلمة النهاية.

المؤلف في سطور

خالد عبد الجابر محمد، مهندس معماري وكاتب مصري من مواليد طنطا 1983.

صدر له رواية "الشريد" عام 2020، وكانت ضمن القائمة القصيرة لجائزة I read.

مؤسس ومدير تحرير صفحة وموقع "أون كايرو" المهتم بالنشر في مجال السياحة الداخلية بمصر، كما درس السيناريو والإخراج في المدرسة العربية للسينما والتلفزيون.